
رحلة مع الأقدار
حكايات ضابط فى الأرياف
١
سراج النيل الصاوى

روايـــة

رحلة مع الأقدار

حكايات ضابط فى الأرياف

سراج النيل الصاوى

شكر

لا يسعنى وأنا أقدم كتابى الأول للقارىء العزيز ، إلا أن أشكر السيدة زوجتى وجميع الأصدقاء الذين شجعونى على إصداره.

وأخص بالشكر الدكتور محمد نبيه حجاب ، والدكتور صلاح محمد عبد الحافظ نائب رئيس هيئة الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بالإسكندرية على تشجيعهما وتوجيههما ... فلهما الشكر الجزيل.

المؤلف

حين يســترجع المرء منا شــريط ذكرياتـه ... ثم يتدارس بعض لأحداث التى وقعت به ... سواء وقعت لـه أو لغيره ، فسيجد أن هناك رباطاً خفيا بينـها ، قد يوصلـه إلى السؤال الأزلى .

هل الإنسان مُسيَّر أم مخيَّر ؟

وأنت أيـها القارىء العزيز ...

فـإننى أتمنى عنـدمـا تنتهى من قراءة هـذه الروايـة ، والتى صــيغت كحكايات إنسـانية متتابعة ، كل حكاية منفصـلة عن الأخرى من حيث الشـكل ، لكنـها مترابطة من حيث المضـــمون برباط الأقدار ... أن تكون قد عثرت على إجابة حقيقية لذلك السؤال ، وأنت تطوى هذه الصفحات ، ذات الأحداث الواقعية !

سراج النيل الصَاوى

ديسمبر ١٩٩٥

"١"

أقدار ... هى!

اصطف الضباط الجدد . من خريجى كلية الشرطة . فى شتاء عام بالستينيات، بملابسهم الرسمية السوداء، واضعين . لأول مرة . على أكتافهم، علامات الرتبة، وهى نجمة نحاسية، على كل كتف.

ما أجملها لحظة .... فرحتها لا تعادلها فرحة.

... فلقد تحققت الآمال ... وبلغ المرء منها المراد.

لم يكن احتفالاً كبيراً، فهذه الدفعة من الخريجين، صغيرة العدد نسبياً، ممن تخلفوا عن النجاح فى الدور الأول فى "يوليو" ، فاقتصر الاحتفال على برنامج بسيط ، أقسم الخريجون فيه على "يمين الولاء" ... وألقى فيهم "الوزير" كلمته ؛ لحثهم على العمل بجدية وإخلاص.

كان الخريجون مشغولى الفكر . أثناء استماعهم للكلمات التى ألقيت . كانوا يفكرون فى دنياهم العملية، التى هم مقبلون عليها، فسوف يتم توزيعهم على المحافظات المختلفة، وفقاً لترتيب تخرجهم، وقد كانت الدفعات المماثلة من ناجحى الدور الثانى، يتم تعيينها بمحافظات الوجه القبلى .. أو تعين بالوجهين معاً ... البحرى والقبلى.

لكن هذه الدفعة كانت أكثر الدفعات حظاً ... فقد تم تعيينهم جميعاً بالوجه البحرى فحسب كما كانوا يأملون.

من بين هؤلاء الضباط، من كانت فرحته أعظم، لأن تعيينه صدر لإحدى المحافظات التى يعرفها ... وله فيها أقارب وأصدقاء.

ومنهم من صدر قرار تعيينه بمحافظة، لم تطأ أقدامه أرضها من قبل، وهؤلاء كانت فرحتهم بالتخرج ممتزجة بشعور بالقلق.

مع بداية التعيين، تبدأ رحلة المرء مع الأقدار، فالتعيين يتم حقيقة، وفقاً لترتيب التخرج، لكن احتياجات المحافظات لما تريد من الضباط تختلف من محافظة لأخرى، ثم توزيعهم الذى يتم وفقا لقواعد سابقة، غالبا ما تجعل الضابط منهم، ليس له دور مؤثر فى تحديد المكان الذى سيعمل به، ولا فى اختيار الزملاء، الذين سيُعَينون معه بالمحافظة، وهم الذين سيشاركونه رحلة العمل لسنوات طويلة بها.

تم إلحاق أوائل الدفعة بالقاهرة ... ثم الإسكندرية ... فمدن القناة .. فالمحافظات الريفية بالوجه البحرى.

من بين هؤلاء الضباط، الذين أمتزجت فرحتهم بشىء من القلق، هذا الضابط الجديد . الذى نقص حكايته . فقد تعين بإحدى هذه المحافظات الريفية .. وهو لا يعرف شيئا عنها، غير اسمها، وأسماء عدد قليل من لاعبى كرة القدم المشهورين، الذين يلعبون، لناديها الحامل لاسمها، فضلا عن علمه القليل عن تاريخ أحد المشايخ المشهورين بها، والذى يوجد رفاته بالمسجد الذى يحمل اسمه بالمحافظة.

انه لم يزر هذه المحافظة من قبل، ولو مرة واحدة، رغم وجود جذور والده باحدى قراها ... لكن لظروف خاصة به، لم يسبق له أن زار هذه القرية أيضا.

لم يكن هذا الضابط وحده الذى تم تعينه فى تلك المحافظة، بل كانوا خمسة ... كان هو من بينهم، وجميعهم كانوا مثله ... غرباء عن المحافظة ... وعلمهم عنها، لا يتعدى علمه.

عقب الاحتفال، منح الخريجون إجازة قصيرة، استعداداً للتوجه إلى المحافظات التى عيّنوا بها، ولتجهيز احتياجاتهم من الملابس الرسمية، وفقا للزى المخصص لهم.

وبينما هو يستعرض شريط الذكريات، جال بخاطره صورة صديقه القديم بالكلية، الذى تخرج قبله منذ شهور .. فهو يعلم أنه تعيّن أيضا فى هذه المحافظة ... يتمنى لو تقابل معه ... ويأمل أن يعملا سويا، وفى جهة واحدة ... أو على الأقل قريبا منه ... فهذا الصديق سيكون خير مرشد له.

بينما كان . ضابطنا هذا . يسير مسرعا، بأحد شوارع القاهرة المزدحمة، لاستكمال شراء بعض حاجياته المتعلقة بملابسه الرسمية، ذات اللون الكاكى، إذ يتقابل معه مصادفة، إنه لم يكن قد رآه منذ تخرجه فى الصيف. تصافحا بحرارة ... تعانقا .. أخبره الصديق بأنه بإجازة قصيرة وسيعود للعمل بالمحافظة ظهر الغد ... يتفقان على السفر للمحافظة معاً، فعلى الضابط الجديد أن يتوجه لمديرية الأمن بعد الغد، هو وزملاؤه الجدد، فى تمام الثامنة صباحا، لتوزيعهم على مراكز وأقسام الشرطة المختلفة بالمحافظة.

فى الموعد المحدد يتقابلان .. ويسافران إلى هذه المحافظة التى جمعت بينهما على غير موعد، وطوال الطريق أخذا يتحدثان. فالصديق بدأ يحدثه عن أحواله ... عن عمله ... يخبره أن العمل بالأرياف يختلف عنه بالمدن .. فله طبيعته الخاصة ... وسماته المتميزة .....

تمنى الصديقان أن يعملا سويا فى مكان واحد .... يسأله الصديق:

. ما عدد الضباط الجدد المعينين بالمحافظة ؟

. خمسة.

. وترتيبك أنت بالنسبة لهم ؟

. الخامس.

. الأخير إذن ؟

يضحكان ... ثم يستطرد الصديق فى حديثه:

. صعب ... صعب ... أن تتعين معى بالمدينة.

ويشرح له أسباب صعوبة ذلك قائلا:

. إن بالمدينة قسمين للشرطة ... أولاً وثانياَ ... بالإضافة إلى المركز الذى أعمل به ... ولو فرضنا أنه يوزع على كل قسم والمركز ضابط ... فيكون عددهم ثلاثة فقط. والباقى يوزع على المراكز الأخرى البعيدة بالمحافظة، وغالبا سيتم ذلك وفقا للترتيب.

. والعمل ؟

. اتفقوا أنتم الخمسة ... ربما يكون من بينكم من لا يرغب فى العمل بالأقسام، لوجود نظام النوبتجيات الليلية بها، وهذا النظام لا يعمل به فى المراكز ...

. حاولنا ولم نتفق ... فالبعض يرفض فكرة الاتفاق ... والآخرون غير متحمسين.

وتضاءلت الآمال فى أن يعمل الضابط الجديد مع صديقه القديم فى مكان واحد ... وأصبحت أمنيته فقط تنحصر فى أن يلحق بأحد المراكز التى تمر بها القطارات السريعة، حتى يتمكن من السفر إلى محافظته فى راحته الأسبوعية، دون أن يضيع وقتا للتوجه إلى المدينة، عاصمة المحافظة، ثم السفر منها بالقطار ..

يستكمل الصديقان حديثهما عن ذكريات أيام الكلية ... ومعرفة أخبار رفاقهما ... إلى أن يصلا إلى المحافظة.

قبل الثامنة صباحا، وصل الضباط الجدد إلى مديرية الأمن، لم يتخلف أحد .. كان مكان تجمعهم مكتب ضابط الاتصال، الذى لم يكن موجودا ساعة وصولهم.

لاحظوا وجود خريطة تغطى معظم مساحة أحد الجدران ... أنها خريطة المحافظة، وقفوا جميعا أمامها يتأملون ... يراجعون مواقع المراكز والأقسام بالمحافظة عليها .... ومنهم من اهتم بالمراكز التى تمر عليها قطارات السكك الحديدية.

يصل أثناء ذلك ضابط الاتصال، كان بشوشا، رحب بهم، هنأهم، لتخرجهم من الكلية. تشجع بعضهم، وسأله عن كيفية توزيعهم على الأقسام والمراكز ؟ وكم عدد الضباط الذين سيعينون بالمدينة ... عاصمة المحافظة ؟ أجابهم بصراحة بأن ذلك الأمر مرهون بقرار مدير الأمن وحده ... فقد يعين بالمدينة ضابطا واحدا ... وقد لا يعين ... فجميع المراكز والأقسام تحتاج إلى ضباط، لوجود عجز بأعداد الضباط بها.

يقدمهم ضابط الاتصال . بعد ذلك . إلى نائب مدير الأمن الذى ينصحهم بالاستقامة والجدية فى العمل. ثم يقوم بدوره بإدخالهم لمدير الأمن . بطابور منتظم . وفقا لترتيبهم .... أضافت طريقة دخول نائب المدير العسكرية إلى حجرة المدير جوا من الرهبة للمكان .... فقد سار بخطوات عسكرية جادة، وقدم التحية العسكرية بقوة ونشاط.

اصطف الضباط فى مواجهة مكتب المدير، مشدودى القوام، مرفوعى الرأس، ونظرهم إلى الأمام.

كان الأول فى المواجهة من الناحية اليمنى ... والخامس من الناحية اليسرى ... والباقون، من الضباط، بينهما بالوسط، وفقا لترتيبهم أيضا.

كان منظر المدير . وهو جالس على مكتبه . مهيبا، كان له اسم يتردد . سابقا . على صفحات الجرائد فى الحوادث الهامة.

قرأ المدير أسماء الضباط من ورقة أمامه، على مكتبه ....

استرعى انتباهه اسم لعائلة أحد الضباط، وهو الضابط الأوسط ... سأله وهو ينظر إليه:

. يا " فلان " ... أنت من المحافظة " الفلانية " ؟

ويرد الضابط عليه بالإيجاب . فيبتسم المدير ابتسامه خفيفة، ثم يستطرد فى كلامه:

. أنت إذن من محافظتى ... نكرمك ... وستكون بالمدينة هنا ليسهل عليك السفر .. و ..

يفاجأ الحاضرون بالضابط الأول يرفع يده بسرعة، علامة الاستئذان للحديث، ثم يتحدث قبل أن يؤذن له، قائلا فى شبه احتجاج:

. يا أفندم .. أنا الأول.

يبدو أن كلمته هذه، لم تعجب المدير ... تجهم وجهه ... وضع إصبعه على نظارته ليصلح من وضعها ... أمسك الورقة التى بها الأسماء، وأخذ يتلو الأسماء بترتيب عكسى، أى من أسفل إلى أعلى، فالأخير قرأه أولا .. ثم الرابع ... فالثالث .. فالثانى .. فالأول .. ومع كل اسم كان يحدد المكان الذى سيعين به .. كان صوته رزينا .. مملوءا بالثقة ..... وكانت مفاجأة فى توزيع الضباط .... فالخامس والرابع والثالث بالمدينة ... والثانى والأول بالمراكز الأخرى البعيدة

ثم أومأ لنائب المدير برأسه، علامة لانتهاء المقابلة ......

وخرج الضباط بطابور منتظم، كما دخلوا .

لم يصدق . ضابطنا هذا . نفسه، لقد تمنى أن يكون قريبا من صديقه القديم، ويعيّن معه، فيتحقق ذلك، بل وفى المركز ذاته.

هكذا تحققت الأمنية ... وصدر قرار إلحاقه ... الذى ظنه مستحيلا. أسرع الضابط للمركز، لتسلم العمل، وليبشر صديقه ... متعجبا من الأقدار .... يصل إلى هناك ... يبشره ... لكن وجد صديقه القديم مشغولا بسرعة تنفيذه لقرار صدر اليوم بندبه إلى مركز آخر، وقعت به أحداث دامية منذ فترة قصيرة، فأريد تعزيزه ببعض الضباط. إنها الأقدار مرة أخرى.

"٢"

المنتفعون

جلس ملازم الشرطة حائرا بمكتبه، بعد أن تسلم إفادة واردة من إحدى الجهات الحكومية المعنية بأمور الزراعة، ومحالة إليه من المأمور لتنفيذها. كانت الإفادة موقعة بإمضاء مدير عام تلك الجهة بالمحافظة، ومكتوبة باليد بخط واضح وجميل، ومختومة بخاتم شعار الدولة، وأعلى الإفادة من اليسار عبارة " هام وعاجل جدا " بالمداد الأحمر.

تضمنت الإفادة بأن الجهة . وهى حريصة كل الحرص . على النهوض بالزراعة، والحفاظ على الثروة الزراعية، فهى تطلب من المركز، العمل على وجه السرعة، لهدم وإزالة مناحل عسل النحل، التى أقامها الفلاحون من المنتفعين بقوانين الإصلاح الزراعى، حيث أن النحل له تأثير ضار على الزراعات الموجودة بالمنطقة، مما يؤثر على موارد الدولة الاقتصادية، تضمنت الإفادة أسماء المخالفين وعددهم أربعة وعشرون منتفعا، وهم جميعا من تلك القرية التى كانت أطيانها وعقاراتها، فيما مضى، مملوكة لبعض أفراد الأسرة المالكة، والتى صودرت هى والمواشى الموجودة بها لصالح الدولة بعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢م.

لم تكن حيرة الضابط الصغير ترجع لصعوبة هدم وإزالة خلايا عسل النحل، أو لخشيته من لدغ النحل له، عند قيامه بعملية الهدم .. أو لأى سبب آخر، لكن حيرته، كانت بسبب عدم اقتناعه بطلب الهدم هذا ...

إلا أنه مال أخيرا لتنفيذ ما جاء بالإفادة، وضرورة سرعة التنفيذ كما طلب، مقنعاً نفسه، بأن علمه فى الزراعة لن يرقى لخبرة وعلم العاملين فى مجاله.

فكر الضابط فى طريقة للتنفيذ، وبدون أن يضع نفسه أو قواته فى مواجهة مع المنتفعين .. خاصة أن لديه إحساسا بالتعاطف معهم، وقد هداه تفكيره . أخيرا . بأن يطلبهم جميعا بمكتبه، صحبة أحد الخفراء من القرية، ويعلنهم بما جاء بالإفادة، طالبا منهم تنفيذ ذلك الأمر بمعرفتهم فى اليوم التالى، وأن يشرف على ذلك، أحد رجال الإدارة بالقرية، وبعد ذلك عليه أن يتأكد هو بنفسه، بالمعاينة على الطبيعة. واهتداؤه لهذا الرأى، مرجعه إلى السمعة بالحزم والشدة التى عرفت عنه بالقرى التابعة للمركز مباشرة، حيث لا يتوانى عن مجازاة أى خفير يتكاسل فى إحضار المشكو فى حقهم من المتهمين، فى الموعد الذى يحدده للتحقيق معهم، فكان الخفراء وعمال تليفون تلك القرى يهتمون بطلباته وينفذونها على الفور.

عندئذ أمسك الضابط التليفون، وتحدث مع عامل تليفون القرية وأبلغه بأسماء المخالفين، طالبا منه حضورهم صحبة الخفير النظامى للطلبات، مؤكدا عليه ضرورة الحضور فى الموعد الذى حدده . وهو صباح اليوم التالى . منذراً إياه، وكذا شيخ الخفراء فى حالة التأخير ... ثم انشغل الضابط بعدها فى بعض الأمور الأخرى.

فى الساعة الثامنة من صباح اليوم التالى، وأثناء توجه الضابط إلى عمله، شاهد عند باب المركز أعدادا من الفلاحين والفلاحات يقفون، ومنهم من يجلس على الرصيف المقابل لبوابة المركز انتظارا لبدء العمل ... وهذا الحال كثيرا ما يتكرر،

وقد اعتقد الضابط أنه لابد وأن يكون من طلبهم للحضور ضمن هؤلاء الفلاحين، جلس الضابط بمكتبه وأخرج ملفا بداخله بعض المحاضر غير المستوفاة، وبعض الشكاوى والإفادات المطلوب اتخاذ إجراءات بشأنها ... وبحث عن الإفادة الخاصة بخلايا عسل النحل من بين تلك الأوراق ثم وضعها فوق الملف ... وأخرج ورقة بيضاء، أخذ يدون بها افتتاحه للمحضر مثبتا بها مضمون الإفادة والإجراءات التى اتخذت بشأن طلب المخالفين ... وكانت ثقة الضابط كبيرة فى أن الخفير النظامى، والمخالفين سوف يدخلون عليه فى الحال إلى مكتبه.

عاود الضابط تلاوة الإفادة، تأكد من جدية الطلب فى إزالة هذه المناحل مرة أخرى .. مر وقت غير قصير، ولم يدخل عليه خفير الطلبات أو أى من المطلوبين ... مع مرور الوقت يفقد الضابط تعاطفه مع هؤلاء المنتفعين ... يحدث نفسه غاضبا .. بأنه يجب عليه التوجه ومعه القوة اللازمة وهدم الخلايا على الفور ... إنه يجب مجازاة شيخ الخفراء وعامل تليفون القرية لهذا التقصير والإهمال.

بينما الضابط على هذا الحال من الغضب .. إذ يدخل عليه عمدة القرية ... بمفرده .. بدون الخفير .. وبدون المخالفين .. يقدم للضابط . مع التحية . ابتسامة عريضة تظهر أسنانه الذهبية، قبيل حديثه معه.

. صباح الخير .. يا حضرة الضابط ..

. صباح الخير يا عمدة.. أنا لم أطلب حضورك..أنا طلبت المخالفين فقط.

ويرد عليه العمدة مهدئا:

. أنا حضرت لسيادتك للزيارة .. صباح الخير أولا .. يا حضرة الضابط أنا وكل أهل القرية تحت أمرك ورهن إشارتك ... لكنى أستأذن سيادتك نصف ساعة فقط ... لألغى هذا القرار ... مع العلم بأن كل المطلوبين موجودون حالياً بحجرة التليفون بالقرية ... ومعهم شيخ الخفراء ... فإن لم أفلح فى مسعاى ... كانوا عندك فى التو واللحظة.

تهدأ نفسية الضابط تدريجيا، ويزول غضبه من عدم حضور المخالفين، ثم يحادث العمدة قائلا:

. لم تساعد المخالفين ؟ .. انك تساعدهم على عدم تنفيذ القانون .. وسوف يترتب على ذلك ضرر بالزراعة والاقتصاد القومى ...

يبتسم العمدة ابتسامته العريضة، فتظهر أسنانه الذهبية مرة أخرى ويقول :

. القانون .. كلنا يا سعادة البك تحت أمر القانون ... وأنا سوف ألغى هذا القرار.. بالأصول.. وبالقانون .. وسأحضر لسيادتك إفادة أخرى بإلغائها.

. لا تحاول يا عمدة .. فلن تستطيع ذلك .. فالإفادة موقعة من المدير العام ذاته .... ولم يمض على صدورها إلا يوم واحد فكيف يلغونها إذن ؟

. لا تقلق يابك ... سوف أحضر إفادة أختها تماما .. وبالختم ... وتوقيع البك المدير العام شخصيا.

. وما المطلوب منى أنا ؟

. أن تأذن لى بنصف ساعة فقط .. وأن تعطينى رقم الإفادة وتاريخها حتى لا أتأخر عليك .. وسأحضر لك خطاب الإلغاء فورا.

كان العمدة يتحدث بثقة تامة ... وكان الضابط من ناحية أخرى يثق فى جدية طلب إزالة مناحل عسل النحل ... فلا يمكن إرسال مثل هذه الإفادة إلا بعد الدراسة من المسئولين بتلك الجهة الحكومية ... وتمنى الضابط فى قرارة نفسه أن يفشل العمدة فى مهمته للثقة الزائدة عن الحد .. وغروره بأنه سيحصل بسهولة على قرار الإلغاء. فأعطاه الضابط البيانات التى طلبها، مقتنعا بأن العمدة سوف يعود خائبا، وسوف يشمت فيه لعدم الاستماع إلى نصيحته.

تمر الدقائق متباطئة ... وينهمك الضابط فى استيفاء بعض الأوراق الأخرى .... وخلال ذلك ينظر إلى ساعته بين الحين والآخر.

مضت ساعة تقريبا، ويهل العمدة بقفطانه البنى على الضابط مسرعا، والابتسامة المعهودة تملأ وجهه، ويجلس على الكرسى المجاور للمكتب مقدما فى صمت ورقة مماثلة للإفادة السابقة للضابط الذى قرأ سطورها قفزاً ... ثم عاد وقرأها ببطء وتمهل. بينما العمدة ينظر إليه ساندا رأسه على يده اليمنى، ثم تحدث للضابط قائلا:

. هيه .. ما رأى حضرتك الآن ؟ .. كما قلت لسيادتك أنا وأهل القرية تحت أمرك .. واذا أردت حضروا إليك الآن فورا ....

. وماذا أريد أنا منهم الآن ؟ الخطاب واضح ... وبنفس الخط الجميل ... والختم أكثر وضوحا هذه المرة ... وتوقيع المدير العام هو .. هو .. وبنفس المداد الأحمر.

ثم يتلو الضابط . بسخرية . بعض ما جاء بالخطاب بصوت مرتفع:

" إلحاقا لخطابنا رقم (كذا)، وبتاريخ (كذا)، بشأن طلب هدم وإزالة مناحل عسل النحل التى أقامها المنتفعون بالأراضى الزراعية خشية التأثير الضار على الزراعة، مما يضر بموارد الدولة الزراعية، نتشرف بإحاطة سيادتكم بأننا ألغينا القرار سالف الذكر نظرا لما للنحل من فوائد عديدة، وحرصا على مصلحة المنتفعين، حيث نضع مصلحتهم فى المقام الأول، وإننا إذ نشكر لكم حسن تعاونكم معنا ... ؟ "

يوجه الضابط حديثه للعمدة متهكما وساخرا:

. تعاون وشكر ؟ .. وهل نحن تحت رحمتهم ومزاج سيادتهم ؟ .. أنا أريد معرفة ماذا فعلت معهم يا عمدة حتى تحصل منهم على قرار الإلغاء هذا ؟

ويرد العمدة مبتسما:

. أرجو أن تعفينى من الإجابة على هذا السؤال يابك .. أنا غير متعلم التعليم العالى مثل سيادتك .... لكن أنا درست فى مدرسة الحياة.

ويستأذن العمدة منصرفا ... بينما يمط الضابط شفتيه متعجبا، ويرفق الإفادة الجديدة بالمحضر، لاغيا حضور المخالفين ... متسائلا بينه وبين نفسه:

. هل تدخلت الأقدار لحماية خلايا النحل من الهدم ؟!

كان الواجب أن أتوجه لتنفيذ قرار الهدم مباشرة .... لولا أن ألهمت باستدعاء المخالفين للمركز أولا ... ثم حدث ما حدث ...

حمدا لله، فإننى لم أتسرع فى تنفيذ القرار.

"٣"

ذكريات بحفل الوداع

بعد غروب شمس أحد أيام شهر أغسطس، حيث خفت حدة الحرارة، وداخل فناء مركز الشرطة . فى هذا المكان . صُفّت المناضد بطريقة متلاصقة، على شكل حدوة حصان وقد غطيت بالمفارش البيضاء، ووضع عليها أطباق من الحلوى المختلفة، مع زجاجات مثلجة من المياه الغازية.

وعلى جدران الفناء ثبتت بعض اللوحات الخشبية، كتب عليها بخط جميل بعض العبارات عن أهداف الثورة الستة، وبعض الكلمات المأثورة عن الزعيم جمال عبدالناصر. وهو أمر شاع فى ذلك الوقت، فى الكثير من المصالح والدواوين الحكومية ... كما أضيىء الفناء بالمصابيح الكهربائية الموجودة أصلا.

حول تلك المناضد جلس المدعوون، كانوا من العاملين بالمركز بمختلف فئاتهم ... من ضباط وموظفين مدنيين، وبعض المساعدين، وضباط الصف، وكذا عدد محدود من أعيان وعمد بلاد المركز، جميعهم اجتمعوا للاحتفال بتوديع المأمور ... حيث صدرت الحركة السنوية لتنقلات ضباط الشرطة، متضمنة نقله إلى موقع خارج هذه المحافظة.

جلس المأمور متوسطا المدعوّين، مرتديا زيه الرسمى الكاكى، وعلى غير طبيعته الجادة أخذ يوزع ابتساماته عليهم، كان فرحا وبشوشا، ولم لا ؟ أليست الجهة التى نقل إليها قريبة نسبيا من محل سكنه بالقاهرة، حيث توجد زوجته وأولاده ؟.

فى نهاية المائدة، جلس ضابط صغير السن بالزى الرسمى، برتبة الملازم .... كانت تعبيرات وجهه جامدة، يصعب لمن يراه معرفة إن كان فرحا لنقل المأمور أم حزينا، وبجواره جلس موظف مدنى مسن، من العاملين بالمركز، كانت له تعليقات ساخرة ومرحة، يهمس بها بين الحين والآخر فى أذن الملازم الشاب، و الذى كان يرد على تلك التعليقات بابتسامة خفيفة.

بدأ حفل التوديع بإلقاء كلمات من بعض المدعوّين، مما تقال فى مثل هذه المناسبات، حيث يتبارى الخطباء فى الإشادة بمآثر المأمور وإنجازاته، وذكر أعماله الطيبة ... وعلى عكس ذلك، أخذ الضابط الصغير يسترجع ذكرياته معه، لم تكن تلك الذكريات طيبة بوجه عام، فتراه يقطب الجبين كلما تذكر موقفا من هذه المواقف، لكن سرعان ما يندمج مع الجو المرح، الذى كان يسود الاحتفال نتيجة للتعليقات المرحة والتى تنبعث من بعض المدعوّين، ثم بعدها لا يلبث أن يعود ثانية إلى ذكرياته مع المأمور.

كانت الصفحة الأولى من تلك الذكريات، هى مقابلته للمأمور أول مرة .. تذكر لقاءه معه حين دخل عليه بمكتبه مؤديا التحية العسكرية، فاكتفى المأمور بالرد عليه دون أن يدعوه للجلوس أو يقدم له أيا من المشروبات، كتحية بمناسبة قدومه للمركز

أسوة بما حدث لبعض الضباط الجدد من زملائه فى مثل هذا اللقاء الأول من الذين تخرجوا معه، وتم توزيعهم على بعض المراكز الأخرى، وعلم بها من خلال أحاديثهم ليلا فى الفندق الذى يقيمون به.

تذكر الضابط الصغير هذا اللقاء الأول وتذكر كيف استدعى المأمور له أحد قدامى العاملين المدنيين من الكتبة، طالبا منه أن يطلع الضابط على العمل الإدارى بالمركز وأعمال الإدارة، وأن يعلمه كيفية تسجيل المكاتبات عند ورودها، وعند تصديرها وألا يكتفى بإحاطته بذلك، بل عليه أن يتقن تلك الأعمال، ومعرفة السجلات المختلفة جميعها، وطلب منه أن يتم ذلك خلال أسبوع.

تذكر الضابط كيف كان شعوره وقتها خلال ذلك الأسبوع ... كيف شعر أن أحلامه تهاوت وتحطمت، بل أحس أنه أهين، حيث كان يتساءل بينه وبين نفسه:

. هل بعد تخرجه من كلية الشرطة، وحصوله على ليسانس القانون، وكذا دبلوم الشرطة يعلمه المأمور كيفية القيد بالسجلات ... ولمدة أسبوع ؟

وكان يتساءل أيضا :

. ألا يكفى أخذ فكرة بسيطة عن هذا العمل، لا تستغرق إلا ساعة زمنية أو عدة ساعات.

وتوالى عرض صور الذكريات بإيقاع سريع ... فبعد انقضاء هذا الأسبوع، تذكر كيف كان المأمور يثقل عليه بالتكليفات، وطلبه تنفيذ الكثير من المهام ..... منها متابعة انضباط العاملين فى الحضور والانصراف، والاعتناء بمظهر الجنود وتفتيش الحجز

وعدم وجود أية ممنوعات به، ومتابعته للقائمين بأعمال النظافة ......

تذكر أيضا كيف كان المأمور يصرخ مناديا عند اكتشافه أية ملحوظة عند مروره بديوان المركز :" أين الضابط الجديد؟" أحضروه فوراً " حيث يطلب منه سرعة تلافى الملحوظة.

كما كان يكلفه بضرورة الإشراف على طوابير النظافة للخيل .... وقد علم الضابط أن هناك مواعيد لنظافة الخيل ... وتسمى هذه العملية بطوابير.

كما كان يطلب منه المأمور أيضا التأكد من أن الجنود المخصصين لذلك العمل، يقدمون للخيل الكميات المقررة لهم من الشعير فى وجباتهم، وكان يسأله عن تلك المقادير ليتأكد من معرفة الضابط الصغير لها.

كان الضابط يتعجب .... لماذا يصر المأمور على تكليفه هو وحده بكل هذه الأعباء الكثيرة والمرهقة، رغم وجود بعض قدامى الضباط، والذين انقضت عدة سنوات على تخرجهم من الكلية، ولديهم خبرة أكثر منه.

يشعر الضابط الصغير . وهو يسترجع شريط الذكريات . بأن المأمور لم يكن عادلا فى توزيعه الأعمال على الضابط، بل كان قاسيا عليه أيضا ... عندئذ تظهر على وجهه علامات الاستياء.

يتوقف شريط الذكريات للحظات ... حيث ينتبه الضابط لما يحدث فى الحفل من هرج وضحك، ويصفق الحاضرون عند قيام أحد الموظفين لإلقاء قصيدة شعر... ويهمس الموظف المسن الجالس بجوار الملازم فى أذنه قائلا

. إنه المنافق الأكبر..عنده قصيدة وحيدة .. يلقيها فى كل حفل توديع لأى مأمور ينقل .... ولكن بعد أن يضيف إليها اسم المأمور المنقول.

وبينما المدعوون يستمعون إلى قصيدة المديح، والذى يكرر ملقيها كل بيت عدة مرات مع استحسان المستمعين له، يختلس الضابط النظر إلى المأمور، ثم يعاود ذكرياته معه حيث تبرز صورة منها أمامه ... أعيدت بكل تفاصيلها بذاكرته، وكأنها قد حدثت بالأمس فقط ... حتى إنه تذكر اسم اليوم ... كان يوم أربعاء، وكانت الساعة الثانية والنصف ظهرا، والمأمور ونائبه والضباط ومنهم الضابط الصغير ... يتأهبون للانصراف، وكعادتهم كانوا لا ينصرفون إلا بعد انصراف المأمور بعد توصيله إلى باب المركز، حيث يركب سيارة الشرطة بمفرده، ثم ينصرفون سيرا إلى منازلهم ....

لكن فى هذا اليوم، إذ بالمأمور يطلب من الضابط البقاء وعدم الانصراف، حيث ورد بلاغ . الآن . بالعثور على جثة لمواطن على شريط السكة الحديد بإحدى قرى المركز، فضلا عن بلاغين آخرين كان أحالهما إلى الضابط أيضا، وطلب الانتهاء منهما قبل حضوره للمركز فى المساء، إذ كان العمل بمراكز الشرطة يخلو من نظام النوبتجية للضباط، حيث يعملون على فترتين صباحا ومساء.

انصرف المأمور والضباط ... بينما عاد الملازم وحيدا إلى مكتبه يتسلم البلاغات .. كان جائعا ومجهدا، فاليوم كان شاقا فى العمل، فضلا عن قيامه فى الليلة السابقة بعمل دورية خيّالة بعد منتصف الليل، فأرسل فى طلب " ساندوتشات " ليلتهمها، ونادى أحد ضباط الصف برتبة رقيب يدعى " السلكاوى " لمعاونته، حيث كان لديه دراية بعمل المحاضر، وكان يقوم أحيانا بعمل المحاضر البسيطة.

وجد الضابط أن البلاغين الآخرين أحدهما مشاجرة بين عدة أشخاص بهم إصابات جميعا، والبلاغ الثانى إتلاف قطعة أرض زراعية لإحدى المواطنات بقرية مجاورة للقرية التى عثر فيها على الجثة ... ولعل المأمور أحالها عليه أيضا لعلمه بتجاور القريتين.

طلب الضابط من الرقيب، " السلكاوى " إعداد خطاب لإرسال المصابين فى المشاجرة للمستشفى الأميرى لتوقيع الكشف الطبى عليهم .... ولحين عودته من معاينة الحادث الخاص بمقتل شخص صدمه القطار، وكذا إجراء المعاينة الأخرى لإتلاف الأرض الزراعية، وبعدها سوف يستجوب المصابين فى المشاجرة بعد عودته.

سأل الضابط الرقيب " السلكاوى " عن أسرع وسيلة للانتقال لعمل المعاينة بتلك البلد، بخلاف استخدامه للخيل، ولحداثة عهده بالعمل بالمركز، وعدم معرفته وسائل الانتقال تماما، حيث كانت سيارة الشرطة الوحيدة الموجودة بالمركز يقتصر استخدامها. فقط . للمأمور ولضباط المباحث عند الانتقال فى الحوادث، بينما كافة الانتقالات لصغار الضباط، ركوب الخيل أو المواصلات العامة.

أجاب الرقيب " السلكاوى " على الفور:

. ولم الانتقال يا بك ؟ ... شخص صدمه القطار فمات ... لا مسئولية على سائق القطار . مادام القطار يسير بسرعته بين الأراضى الزراعية . ومادام لا توجد مسئولية فلا داعى للانتقال ... ونستطيع أن نجرى المعاينة بالتليفون ... وستكون معاينة دقيقة ... كأن سيادتك عاينتها بنفسك، وتوجهت فعلا لمكان الحادث.

ثم أكمل حديثه قائلا للضابط:

. أما معاينة إتلاف الأرض الزراعية ... فهى حادثة إتلاف قطعة أرض صغيرة ... ومعاينتها تجوز بمعرفة شيخ الناحية، وسنرسل إشارة تليفونية لشيخ الناحية لإجرائها وإرسالها لنا مع المشكو فى حقه ... وبهذا يكون هذا المحضر قد تم هو الآخر.

يوافق الضابط . بعد تردد . على اقتراح الرقيب "السلكاوى"، خاصة أنه مجهد، فضلا عن مشقة الانتقال، سواء أكان ذلك بالخيل، أم بالمواصلات العامة ......

ويمزح الضابط مع الرقيب قائلا:

. انك تستحق كوب شاى على ذلك ... إنهم على حق من تسميتك " بالسلكاوى ".

ويشعر الرقيب بسعادة، مبديا مهارته، حيث يمسك على الفور بالتليفون المجاور، للضابط، طالبا من عامل التليفون بالمركز سرعة توصيله بالقرية التى بها حادث العثور على الجثة ... ويحدث عامل التليفون بها، وينهمك فى تدوين بيانات معاينة الحادث فى مسودة، بينما أمسك بيده اليسرى سماعة التليفون، ويتحدث بصوت عال ليستمع الضابط الى حديثه بسهولة، سائلا عامل تليفون القرية ومردداً إجابة عامل التليفون بصوت عال أيضا:

. الجثة معروفة ؟

. نعم.

. لمن ؟

. اسمه : على على إبراهيم.

. مزارع ؟

. لا ... غنام.

. لون جلبابه ؟

. أزرق ... أزرق مقلم.

. الحد البحرى لمكان العثور على الجثة ؟

. زراعة قطن.

. مملوكة لمن ؟

. الحاج أحمد عبد السلام.

. أرسله لنا للمركز، لأخذ معلوماته .. والحد القبلى ؟

. الترعة.

.... الخ.

. والجثة على الشريط المتجه للقاهرة أو العكس ؟

. العكس.

. هل يوجد أحد من أهله ؟

. شقيقه.

. أرسله لنا أيضا، لأخذ معلوماته .. الآن. شيخ الخفراء يظل بجوار الجثة، لحين إبلاغك بتعليمات أخرى ... سلام.

يناول الرقيب " السلكاوى " هذه الورقة للضابط قائلا فى سعادة:

. أتفضل يابك المعاينة ... لم تستغرق خمس دقائق ... اثبتها سيادتك فى المحضر وصاحب الأرض المجاورة سيحضر الآن لسؤاله عن معلوماته هو وشقيق القتيل ...

ونعرض المحضر على النيابة للتصريح بالدفن .. وعلى فكرة يابك .. ما نفعله الآن .. هو لوجه الله ... فإكرام الميت التعجيل بدفنه، وستنال سيادتك ثوابا كبيرا فى الآخرة .....

ثم يعاود الرقيب " السلكاوى " طلب البلدة الأخرى، ويطلب من عامل التليفون بها استلام إشارة من المركز، كان قد أعدها بسرعة وعرضها على الضابط الذى وافق على إبلاغها .. وكالمرة الأولى، كان يتلوها بصوت مرتفع قائلا:

. بالنسبة لبلاغ المواطنة " سعدية أبو سويلم " من القرية بشأن إتلاف قطعة أرض حيازتها والمزروعة طماطم، واتهامها للمدعو "السعيد محمد صالح" من القرية بإتلافها. يكلف شيخ بلد الناحية بإجراء المعاينة اليوم، وتحديد المساحة التالفة وتقدير قيمة التالف، وترسل المعاينة والمشكو فى حقه صحبة أحد الخفراء .... انتهت الإشارة يا خفير ... والإمضاء المأمور .. ما رقم الإشارة لديك ؟

. ثلاثة ... عبد الرسول.

. نبه ياعبد الرسول .. المعاينة تتم بسرعة.. والمتهم ترسله الآن.. سلام.

يضع الرقيب " السلكاوى " السماعة على التليفون، ويناول صورة من الإشارة للضابط طالبا منه إرفاقها بمحضر الإتلاف، ويقول بزهو:

. والمعاينة الثانية .. انتهينا منها.

ثم أسرع يحرر خطابا للمستشفى الأميرى، للكشف على المصابين فى المشاجرة ... ويعرضه على الضابط، فيوقع عليه ... ويرسل المصابين مع أحد الجنود للمستشفى للكشف عليهم ثم إعادتهم للمركز ... ينفذ " السلكاوى " كل هذا بهمة ونشاط .. ثم يتذكر شيئا، ويقول: " آه .. كدنا ننسى شيئا مهما ".

ويستأذن من الضابط، ثم يعود على الفور، وبيده دفتر الأحوال، طالبا من الضابط إثبات قيامه لإجراء المعاينة لحادث العثور على الجثة .... فينظر الضابط إليه مترددا، ومتسائلا : أليس هذا تزويرا يا" سلكاوى " ؟

. تزوير؟ ... هذه أمور شكلية فقط يا بك ... ولا تنسى سيادتك بعد فترة أن تثبت عودتك أيضا.

يهز الضابط رأسه، وهو يحدث نفسه قائلا:

. التزوير هو تغيير فى الحقيقة ... ونحن لم نغير فى حقيقة المعاينة، وليس لنا مصلحة ولم نضر أحدا ... وخلاف ذلك فهى أمور شكلية حقا كما يقول الرقيب " السلكاوى ".

وأمسك بالدفتر وأثبت قيامه هو وأحد الجنود، راكبين الحصان رقم " كذا "، والحصان رقم " كذا " بأسلحتهما، لإجراء المعاينة.

وذلك كما يحدث دائما عند قيامه فى كل مرور أو معاينة، ثم ترك دفتر الأحوال بجواره ليثبت عودته بعد فترة من الوقت.

سارت الأمور كما أرادا ... وتم الانتهاء من تحرير المحاضر تقريبا... من إثبات المعاينات...واستجواب المتشاجرين ... وإرسال محضر العثور على الجثة لوكيل النيابة بمنزله، الذى طلب ندب الطبيب الشرعى لتشريح الجثة، ووصف ما بها من إصابات، وبيان سبب الوفاة، وما إذا كان فى الحادث شبهة جنائية من عدمه.

بنفس السرعة أخطر الطبيب الشرعى، الذى انتقل إلى مكان الحادث لتشريح الجثة على الفور.

تحدث الضابط مع نفسه وقتها قائلا:

. لو لم يكن الرقيب " السلكاوى " موجودا معه يساعده فى إنجاز تلك الإجراءات ... هل كان سينتهى من عمل تلك المحاضر فى هذا الوقت القصير ؟.

استرخى الضابط على كرسيه، مادّا رجليه إلى الأمام ، وأخذت أصابع

يديه تعبث براديو " ترانزستور" صغير، على مكتبه، باحثا عن أغنية أو موسيقى، تعجبه لتسليه لحين عودة المأمور للمركز فى المساء، ليطلعه على المحاضر، كطلبه.

يخرج التصفيق . الذى دوّى عقب انتهاء الشاعر من إلقاء قصيدته . الضابط من جو هذه الذكريات، ويعيده إلى جو الاحتفال ... ثم يعود التصفيق مرة أخرى، ولكن هذه المرة أشد ولمدة أكثر .... فالمأمور ذاته هو الذى سيلقى كلمته، ليشكر المدعوين، ومن أشادوا به ... ويتكلم المأمور ... لكن الضابط لايصغى لكلمته ....

ويعود إلى متابعة الذكريات معه ... فما حدث بينهما فى بقية ذلك اليوم، ظل محفورا فى ذاكرته ... يستكمل شريط الذكريات ... فيتذكر عودة ضباط المركز . للفترة المسائية . فيخبرهم بثقة، بأنه انتهى تقريبا من عمل كل المحاضر ....

وبعدها سمع جندى الحراسة . المعين على باب المركز . مناديا بأعلى صوته:

. انتباه.

معلنا حضور المأمور للمركز. وما أن تمر فترة قصيرة، إلا ويستدعيه المأمور إلى مكتبه بعد أن أثبت كعادته، اطلاعه على دفتر الأحوال، وعلم ما به ......

يذهب الضابط إليه، واثقا من نفسه، حاملا ملفا بداخله المحاضر الثلاثة ..... يحييه التحية العسكرية ... يعرض عليه محضر المشاجرة أولا ... لكن المأمور يطلب عرض محضر العثور على الجثة أولا ... ويسرع المأمور بالإطلاع عليه ... ثم يحدّق بعينيه الضيقتين نحو الضابط متسائلا:

. هل انتقلت لمكان الحادث ؟

. المعاينة موجودة فى المحضر ياأفندم.

. هل انتقلت إلى هناك ؟

. سألت شقيق القتيل... ولم يتهم أحدا، ولم يشاهد الحادث، وكذلك سألت صاحب الأرض المجاورة، وتبين عدم مشاهدته للحادث أيضا... والظن لأنه غنّام أراد مفاداة غنمه . فدهمه القطار ...

يصمت المأمور، ويعاود سؤاله بهدوء:

. سؤالى محدد .. هل انتقلت لعمل المعاينة ؟

يسأل الضابط نفسه : ما العمل ؟ .. إنه لا يكذب أبدا مهما كان الأمر ... هكذا تعود منذ أن كان طفلا ... وتأتيه الشجاعة، فيقول للمأمور:

. لا ياأفندم .. ولكن المعاينة عملتها بالتليفون أنا والرقيب "السلكاوى" . عن طريق عامل تليفون البلدة ... وهى طبق الأصل . ثم يضيف ما سبق أن ذكره "السلكاوى" . من عدم وجود مسئولية على سائق القطار، مادام يسير بسرعته فى المزارع ... والمحضر انتهى ياأفندم. وتأشر عليه من وكيل النيابة بانتداب الطبيب الشرعى، والذى انتقل منذ ساعة تقريبا لمحل الحادث ... وأعتقد أنه كاد أن ينتهى من عمله الآن ... وبالطبع ستكون الوفاة نتيجة اصطدام القطار به .. وستصرح النيابه بالدفن و ......

يصرخ المأمور فى وجهه قائلا:

. كفى ... كفى ..

يبدو الغضب على وجه المأمور ... يضغط على الجرس طالبا من الجندى المعين على باب مكتبه إبلاغ نائب المأمور والرقيب " السلكاوى " للحضور:

يدخل نائب المأمور، ثم يدخل الرقيب "السلكاوى"... ويحكى المأمور بإيجاز ما حدث لنائبه، يخبره أنه اكتشف تزويرا قام به الضابط الجديد هو والرقيب "السلكاوى"، حيث أثبت الضابط قيامه للمعاينة، وهو لم ينتقل، وأنه اعترف له بذلك.

ويطلب المأمور من نائبه الجلوس، ويناوله ورقة، ويملى عليه بصوت مرتفع إخطاراً لمديرية الأمن، والنيابة وإدارة البحث الجنائى ... بشأن واقعة التزوير... يتوسل الرقيب "السلكاوى" مستعطفا المأمور قائلا، أنه ليس له دخل فى الموضوع، وأن دوره كان مساعدة الضابط فقط وبقصد العمل لوجه الله، لسرعة دفن الميت، لينال الثواب فى الآخرة.

يرد المأمور ساخرا :

. سرعة دفن الميت ... هل عرفتم أن الجثة لقتيل، وبها طلقات رصاص ... وأنها نقلت، ووضعت على شريط السكة الحديد ...

يضع المأمور الإخطار على مكتبه، ويطلب من النائب وضع الرقيب "السلكاوى" تحت التحفظ ... وأن يتواجد الضابط الجديد بمكتب النائب لبعض الوقت .... ويخرج الجميع عدا النائب، الذى تحدث مع المأمور برهة، ثم توجه إلى مكتبه.

ويجلس الضابط على كرسى أمام نائب المأمور، ويسود الصمت الحجرة، وينشغل نائب المأمور بالأوراق التى على مكتبه ... بينما الضابط يشعر بأن الدنيا قد أظلمت فى وجهه ويحدث نفسه قائلا:

. هل هذا سيكون مصيره ... من ضابط شرطة إلى مزور ؟

. هل بعد تعبه وكفاحه فى المذاكرة بالكلية إلى أن تخرج . ولم يمض على عمله إلا أسابيع قليلة . يكون مصيره السجن ؟ ..... وبهذه التهمة النكراء ؟

ويلعن اليوم الذى رأى فيه "السلكاوى"... حيث شعر الضابط . الآن . بأنه السبب فى كل هذه المصائب ... إنه كان ينوى الانتقال لعمل المعاينة لولا هذا "السلكاوى" ... لماذا لم يخطر بفكره احتمال أن تكون الجثة لقتيل، ووضعت على شريط السكة الحديد لإخفاء معالمها .... ؟

لقد درس ذلك فى علم " التحقيق الجنائى " بالكلية، ويعرف أهمية المعاينة ... وتمر الثوانى والدقائق على الضابط . وهو بهذه الحالة . وكأنها الدهر كله .... يشعر الضابط وقتها بخطئه الشديد، حيث إنه بفعله هذا، كاد أن يطمس معالم جريمة، إنه شريك مع مرتكبها إذن ....

ثم يسأل نفسه : ولكن من أين علم المأمور بذلك ؟

...... هل ورد إخطار الطبيب الشرعى ؟

ويحاول الضابط قطع الصمت، سائلا نائب المأمور :

. كيف عرف المأمور بأن الجثة أطلق عليها الرصاص قبل العثور عليها؟

ويجيب نائب المأمور . بعدم اكتراث :

. لا أعرف.

ويعود الضابط إلى التحدث مع نفسه : ماذا سيقول أمام النيابة، دفاعا عن نفسه ؟

يجب أن يوضح أنه لا توجد وسيلة انتقال بالنسبة له إلا الخيل ... ولو ركبها لما أنجز عمل هذه المحاضر الثلاثة ... وأن سيارة المركز لا يركبها إلا مع المأمور أو مع ضابط المباحث إذا ما استدعاه أحدهما للتوجه معه ... لابد أن يعلم وكيل النيابة كل هذه الظروف ... ثم يتساءل:

. لماذا لم يعط المأمور الإخطار لعامل التليفون، لإبلاغه للجهات، وأبقاه بعد كتابته على مكتبه ...

ويجيب على تساؤله : بأنه ربما لأهمية البلاغ، سيبلغه المأمور بنفسه.

وفجأة يدخل جندى ممسكا بورقة، ويؤدى التحية العسكرية لنائب المأمور، محدثا صوتا بارتطام قدمه بالأرض قائلا :

. تقرير الطبيب الشرعى يا أفندم.

يطلع عليه النائب بسرعة، ويتلو بعض ما جاء به بصوت عال قائلا: " لا شبهة جنائية، الوفاة نتيجة اصطدام القطار بالمجنى عليه ".

يسأل الضابط متلهفا:

. والطلقات ... الطلقات التى بالجثة ؟

يبتسم نائب المأمور، ويجيب عليه بحنو قائلا:

. إن المأمور أراد أن يعلمك أهمية المعاينة، وأن تجريها على الواقع بدرس لا تنساه، أبدا ....

ولازال الضابط يتذكر أن هذه الواقعة كانت آخر عهد للرقيب "السلكاوى" بالمحاضر فقد عين لحراسة السجن بصفة دائمة.

وبينما الملازم مستغرق فى ذكرياته هذه، إذ بالموظف الجالس بجواره فى الحفل ينبهه قائلا له :

. سرحان فى أى شيء ؟ ... انتبه ... إن المأمور يتحدث عن معاملته للضباط الجدد.

ويستمع الضابط مركزا لبقية الخطبة ... يجده يتحدث عن رسالة الشرطة واهتمامه بتعليم الضباط الجدد لحمل هذه الرسالة، لذا فإنه كان يقسو عليهم أحيانا مبتغيا تعليمهم لمصلحتهم، ومصلحة العمل، وأخذ يسترسل فى خطبته، وكأنه سمع بتساؤلات الضابط الصغير، عندما استرجع ذكرياته معه الآن.

وانتهت الخطبة ... وبانتهائها كان ختام الحفل ... وصفق المدعوون كثيرا وعندما انتهوا من التصفيق، تبينوا أن أحدهم ظل يصفق بشدة ولمدة أطول ... وكان هذا الشخص هو الضابط الصغير.

وحين يسترجع الضابط الصغير ذكرياته عن الواقعة ....

يتساءل مع نفسه قائلا :

ماذا كان مصيره، لو أن القدر كان له بالمرصاد، وظهر من التشريح أن جثة القتيل وجدت بها آثار لطلقات رصاص فعلا؟!.

"٤"

البحث عن فرصة

فى إحدى ليالى الصيف القمرية، سرح ذهن ملازم الشرطة الشاب، وهو يمتطى جواده الأبيض، متقدما جندّيى الخيالة المسلحين، وهم يخترقون الطرق الزراعية حيث الهدوء كان يسود المكان، فلا تسمع إلا نقيق الضفادع مختلطا بإيقاع أقدام الخيل.

سرح ذهنه فى كيفية تعيينه ضابطا بالمباحث، فهو يعشق العمل فى مجال البحث الجنائى، ولا يرضيه أى عمل آخر سواه، ومن أجل ذلك كان التحاقه بكلية الشرطة.

لذلك فقد تمنى أن تصادفه فى دوريته هذه، بعض الأمور، التى تظهر كفاءته فى العمل أمام رؤسائه، ليرشحوه للعمل بالمباحث، فقد علم من أحد زملائه أنهم يستعرضون حاليا بعض الأسماء من صغار الضباط لاختيار مجموعة منهم لإلحاقها بأعمال المباحث ... لذا فإن فكره كله انصب على استغلال أى فرصة لإظهار مواهبه وعليه أن يبحث عنها.

سارت الدورية فى خط سيرها المحدد لها سلفا، وها هم يصلون إلى القرية التى يقصدونها، يقابلهم فى مدخلها شيخ الخفراء بسلاحه مناديا إياهم بصوت مرتفع متسائلا:"من هناك"؟

فيرد عليه أحد جنود الدورية قائلا: " الدورية ".

والاستفسار عن شخصية القادم بهذه الطريقة أمر تعود الضابط على سماعه من الخفراء، عند مروره ليلا فى الدورية، حتى ولو كانوا يعلمون ومتأكدين بأنها الدورية، فهم يعتقدون بأن هذا التصرف يدل على يقظتهم أمام الضباط.

يأمر الضابط شيخ الخفراء أن يرشده إلى موقع المقهى الموجود قبلى الناحية .... فيجيبه شيخ الخفراء بأنه المقهى الوحيد بالقرية، ويسرع بالسير أمامهم، وينشرح صدر الضابط عندما يتقابل مع عدد آخر من الخفراء أثناء سيرهم فى شارع القرية الرئيسى المؤدى إلى المقهى، حيث يأمرهم . وهو يرد التحية عليهم . بالسير خلفه.

تمنى الضابط أثناء سيره إلى المقهى، أن يجد به تلك المجموعة سيئة السمعة . التى سمع عن انحرافها . من شباب القرية المراهق، و الذى لا همّ له إلا لعب القمار ثم ارتكاب حوادث السرقات والمشاجرات بعد ذلك.

كما تمنى الضابط، وهو فى طريقه أيضا، أن يحالفه الحظ، فيجد ذلك العجوز الذى سمع عن اتجاره بالمواد المخدرة لرواد المقهى والمدمنين من أهل القرية.

وتخيل الضابط سريعا . عدة أمور قبيل أن يصل إلى المقهى ... تخيل أنه وجد كل هؤلاء الذين تمنى ضبطهم ... وأنه قام بضبطهم فعلا، وأخذ خياله يرتب كيفية إرسالهم . بعد الضبط . إلى المركز ... هداه تفكيره إلى ضرورة طلب سيارة المركز فور الضبط، من حجرة التليفون الملحقة بدوار العمدة، أنه سيصطحبهم بالسيارة ويترك حصانه لأحد جنود الخّيالة ...

تتابعت عدة صور فى خياله ... صورة المأمور الجديد، عندما يعلم بذلك ... أنه سوف يسرّ، فكثيرا ما كان يحكى له ولزملائه من الضباط عن نشاطه وضبطياته العديدة فى مروره عندما كان ضابطا صغيرا مثله ... لكن صورة رئيس مباحث المركز ... توقف خيال الضابط أمامها ... فهل ذلك سيسرّه أم لا ؟ ... إنه يعتبره مثله الأعلى، القدوة له ... فهو كثيرا ما نصحه بعدم التهور، والقيام بمثل تلك المهام والمأموريات، إلا إذا كانت معه قوات كافية للضبط، خشية التعدى عليه، مما يؤثر على هيبته ... إنه يحمد الله فى سره، حيث إن القوة التى معه حاليا من الجنود والخفراء مناسبة لهذه المأمورية.

تقترب القوة من المقهى... يشير إلى موقعه شيخ الخفراء من بعيد ... يترجل الضابط .. يفعل مثله الجنديان الآخران .. يسرع الضابط فى اتجاه المقهى . الذى يظهر ضوؤه فى نهاية الطريق . تاركا حصانه لأحد الخفراء، الجميع يتبعونه ويسرعون الخطى .. يضع الضابط يده على مسدسه الحكومى، المثبت فى حزام بوسطه . استعدادا لأى طارىء .... يقتحم الضابط المقهى، .... لكنه يفاجأ بعدم وجود أحد به، سوى صاحب المقهى !! .. الذى يبتسم فى وجه الضابط مرحبا به ... فتظهر من بين شفتيه أسنانه الصفراء ...

يتذكر الضابط . عندئذ . حديث المزارع العجوز من أهل القرية الذى أمده بتلك المعلومات، عندما كان يبلغ عن سرقة من مسكنه ... حيث نبهه أن شيخ الخفراء يعلم من بعض ضباط الصف بالمركز بمواعيد الدورية ..... فينتظم هو وبقية الخفراء إلى أن تنتهى الدورية ... وأنه فى ليلة الدورية يحيط صاحب المقهى علما أيضا، فيرفض الأخير وجود أى أحد من لاعبى القمار أو المنحرفين بها.

يكظم الضابط غيظه، وينهر صاحب المقهى طالبا منه سرعة غلقه، لتأخر الوقت ليلا .. ثم يمتطى جواده، ويتبعه الجنديان الآخران، ليكملوا مرورهم ... بينما شيخ الخفراء والخفراء يؤدون له التحية.

يلعن الضابط حظه العاثر ... فالفرصة التى ينتظرها وسعى إليها ليبرز نشاطه وجهده لعلها تلحقه بأعمال المباحث، ضاعت بسبب سوء حظه وسلوك شيخ الخفراء المشين بإفشائه موعد الدورية لصاحب المقهى.

ما أن يصل الضابط إلى ديوان المركز ... إلا ويثبت فى عجالة عودته بدفتر الأحوال، وكذا يثبت فى تقرير الدورية بأن جميع الخفراء كانوا موجودين، وأنه على عكس ما تمنى لم يجد أية ملاحظات تذكر .. ثم ينصرف متوجها إلى مسكنه .. سائرا على قدميه فى خطوات متثاقلة .. بينما ذهنه منصرف للبحث عن فرصة أخرى لتظهر مواهبه.

أخيرا يصل إلى مسكنه ... يصعد السلالم المؤدية إلى الدور الأول، حيث يقيم فى شقة صغيرة بمفرده .. يخلع ملابسه العسكرية فى تكاسل ... يلقيها على أحد المقاعد ... يتناول ثمرة واحدة من الفاكهة ويأكلها وهو يرتدى ملابس النوم .... انه لا يشتهى تناول طعام العشاء ... فيكتفى بهذه الثمرة ويلقى بجسده على السرير استعدادا للنوم. لكنه بعد قليل يسمع فجأة صياحا وصراخا ينبعث من الشقة الملاصقة لشقته، لا يعيره أى اهتمام، فقد تعود على سماعه كثيرا ... فهو يعلم بأن هذا الصراخ مرجعه غيرة الزوجة الشابة على زوجها، لاعتقادها أنه على صلة بأخرى ينوى الزواج منها، هذه الأسرار الزوجية تصله أدق تفصيلاتها دون سعى منه،

فصوت الزوجة العالى يشق سكون الليل، ويصل إلى مسامعه بوضوح عند كل مشاجرة بينها وبين زوجها ... وها هو صوتها يخفت تدريجيا ويتلاشى ... يغلبه النعاس لتعبه وينام سريعا نوما عميقا.

فى الصباح الباكر، يصحو الضابط فجأة على صراخ تلك الزوجة مرة أخرى ... لكنه صراخ متلاحق لم يسبق له سماعه بهذه الطريقة ... ثم يسمع رنين جرس باب شقته ، يعقبه طرق شديد عليه .. يقوم فزعا... يفتح الباب .. يجد جاره بملابس النوم، حافى القدمين، يرجوه فى هلع وذهول، سرعة الاتصال تليفونيا لإحضار سيارة الإسعاف لعدم وجود تليفون لديهم، يخبره بأن زوجته احترقت ... يطلب الضابط سريعا سيارة الإسعاف ... يعلنهم بشخصيته وعنوان المسكن، يؤكد عليهم راجيا سرعة الحضور...

يستعد الضابط بسرعة لغسيل وجهه وحلاقة ذقنه ... ينظر فى المرآة ليرى ذقنه فقد تعود منذ أن كان طالبا فى كلية الشرطة أن يحلقها يوميا، ولا يطيق تركها ولو ليوم واحد ... ولكنه اليوم يقرر عدم حلاقتها ... فالأمر جد وخطير ... فاحتراق الزوجة وراءه جريمة بلا شك ... وأنه يجب التوجه معهم إلى المستشفى ... فهو يرتاب فى الزوج ... ويحدث نفسه بأن هذا الحادث سيكون فرصة كبيرة لإظهار مواهبه، وأنه لم يبحث عن الفرصة هذه المرة ... بل هى التى أتت إليه طواعية باختيارها ... إن الشكل العام للجريمة أخذ يكتمل فى مخيلته ... فهذا الزوج أراد قتل زوجته ... إنه أكيد مل صراخها الدائم وشجارها المستمر عند كل عودة له إذا ما تأخر ليلا ... حيث تظن به الظنون، فضلا عن أن أحاديثها السابقة وصراخها المتلاحق هذا يؤكدان ظنونه.

يستمر الملازم الشاب فى رسم صورة للحادث فى مخيلته، بينما يرتدى قميصا وسروالاً مدنيا الأرجح أن الزوج قد فاجأها وهى نائمة على سريرها بإلقاء سائل بترولى كالكيروسين أو البنزين ثم أشعل بها عود ثقاب ... فقامت الزوجة من نومها فزعة محدثة صراخها المتلاحق الذى سمعه إلى أن تمكنت من إطفاء النار بعد إصابتها .....

يهز الضابط رأسه وقد انتهى من ارتداء ملابسه، علامة الموافقة على ما يدور فى مخيلته لوصف الحادث ... يقرر بينه وبين نفسه أنه لابد من التحفظ على الزوج ....

يعاود متابعة الحادث فى مخيلته محدّثا نفسه ... لاشك أن المعمل الجنائى فى مقدوره إثبات إدانة الزوج ... أو بصمات الزوج على زجاجة هذا السائل، ويسترجع كل ما درسه فى الكلية....

يجزم الضابط بأن الزوج هو الذى فعل ذلك، فالصراخ الذى سمعه من الزوجة، بدأ فجأة عاليا ... ولم يسبقه شجار بينهما كالمرات السابقة ... فضلا عن أن الوقت كان مبكرا، والجميع نيام ... خاصة أن اليوم يوم جمعة ... يوم العطلة الأسبوعية ...

ها هى سيارة الإسعاف تصل إلى المسكن يسبقها صوتها المميز .. تقف فى هدوء ينزل منها المختص يعاونه السائق فى حمل النقالة ... يستقبلهما الضابط ويدخلون إلى شقة المصابة ... يساعدهما الضابط والزوج فى وضع الزوجه على النقالة ...

ينظر الضابط إلى الزوج ... يجده يبكى .. يسخر الضابط فى سره من بكائه، محدثا نفسه بأن هذا . لاشك . تمثيل أمامه، لإبعاد الشبهة.

يضعون المصابة على النقالة ويحملونها جميعا ... تتأوه الزوجة أثناء حملها، ناظرة للزوج، تتمتم ببعض الكلمات المبهمة، يقترب منها الضابط ليسمعها بوضوح، لعلها تتهم زوجها .. إن كل كلمة ستقولها سينقلها فى شهادته أمام النيابة بعد حلفه لليمين، كدليل ضد زوجها. تتمالك الزوجة نفسها، وتقول بصوت خافت لزوجها :

. ربنا يسامحك يا حسن ... جعلتنى أحرق نفسى ... وأموت كافرة ... سامحنى يارب.

يفاجأ الضابط لسماعه هذه الكلمات، ويضع رجال الإسعاف الزوجة فى السيارة ... وأثناء ذلك يربت الضابط بيده على كتف الزوج، مواسيا ... وتنهب السيارة الطريق إلى المستشفى، يسبقها صوتها المميز .. بينما يصعد الضابط السلالم متثاقلا عائدا لشقته، ليحلق ذقنه، استعدادا لارتداء ملابسه الأميرية، والذهاب إلى عمله ... فالأمر، لا يعدو أن يكون محاولة انتحار فقط، وليس كما ظن بأنها جريمة ليكتشفها إظهاراً لمواهبه أمام رؤسائه.

وأخذ يلوم نفسه، وهو يصعد السلالم، بسبب شهادته التى كان ينوى الإدلاء بها ضد الزوج.

ويسأل نفسه :

. ماذا لو قدر، وتوفيت الزوجة، قبل أن يسمع حديثها الأخير.

"٥"

دورية

بخط السير ... رقم (٧)

يا لها من ليلة شديدة البرودة ! .. لم تُجدِ الملابس الثقيلة، التى ارتداها ملازم الشرطة فى تخفيف إحساسه بهذا البرد القارص.

فقد ارتدى سروال السوارى الثقيل، ووضع قدميه داخل حذاء الفروسية طويل الرقبة، بعد أن ارتدى جوربا من الصوف، ثم تلفّع بكوفيّه طويلة ... و ..... ومع ذلك لم يزل يشعر بالبرد.

نظر إلى هيئته فى المرآة، ثم تحسس مسدسه الموجود حول وسطه، مُصلحا من وضعه ... أخيراً أدخل يديه داخل قفازه الجلدى وأمسك الكشاف " البطارية " بيده، متجها إلى الباب، خارجا، وتوجه سيراً على قدميه إلى مركز الشرطة الذى يعمل به، بخُطىّ سريعة، فلقد قرب موعد قيامه للمرور بالدورية السوارى.

إنه يعلم جيدا أهمية خروج الدورية فى الموعد المحدد لها دون تأخير، فأحيانا ما توجه دورية أخرى بالسيارة، برئاسة أحد كبار ضباط المديرية، يكون هدفها متابعة خروج دوريات السوارى وعودتها فى المواعيد المحددة، والتأكد من أن تلك الدوريات تلتزم بخطوط السير المحددة لها.

إنَّ عليه اليوم المرور بخط السير رقم "٧" ... نعم ... فالدوريات لها خطوط سير مرقمة، ومحدد فيها النقاط الواجب المرور عليها.

لا يعرف الضابط على وجه التحديد لماذا لا ينشرح صدره عند قيامه بالمرور بخط السير رقم "٧" هذا ؟ هل يا ترى لأن هذا الخط، معظم طرقه غير ممهدة، وبه عزب كثيرة متباعدة ؟

أم لأن بعض طرق هذا الخط موحشة، وأنهم يضطرون أحيانا المرور بوسط المقابر للوصول إلى إحدى عزبه ؟؟

ما أن يصل الضابط إلى المركز، حتى يجلس بسرعة بمكتبه، مخرجا كراسة من الدرج، يتصفح أوراقها على عجل ... إنها كراسة خاصة به، يدون بها خطوط سير الدوريات وملاحظاته، التى أثبتها فى تقاريره السابقة، عند مروره على خطوط السير، كل خط على حدة.

أمام إحدى صفحات الكراسة، كتب عليها من أعلى كعنوان، عبارة بخط واضح كبير (خط السير رقم "٧") ... يتوقف الضابط ليقرأ ما بها بسرعة ... إنها تشمل النقاط الواجب، المرور عليها، والمكونة لخط السير ... ثم بعض المذكرات الموجزة عن ملاحظاته، فى مروره السابق بهذا الخط، لتذكره بأحداثها، قرأ بسرعة ما كتبه، وجد الآتى:

" دورية يوم ٢٨ ديسمبر "

. الخفير النظامى " الهلالى " ... لم يكن موجودا.

. الخفير الصباحى ... وجدناه بالسلاح فقط، وليس معه ذخيرة ...

ثم يقرأ الضابط تعليقا كتبه على ذلك ..." ماذا سيفعل بالبندقية إذن؟... إنهم يستهلكون ذخيرتهم بإطلاقها مجاملة بأفراح القرية".

. خفير العزبة المستجدة ... المدعو "الأودن"... لم يجده بالعزبة.

ثم يقرأ تعليقا آخر كتبه ... " أخبرنى جنود السوارى بأن هذا الخفير، على حاله هذا منذ فترة، فهو غالبا لا يوجد بدركه ... وإنما يكون نائما بمنزله بالعزبة ."

يهز الضابط رأسه وهو يقرأ هذا التعليق ... ويحدث نفسه بأنه إذا وجده بمنزله ... فسوف يطلب بيانات من ملفه عن الملاحظات السابقة بالنسبة لغيابه.... وانه سيعرضها بمذكرة منفصلة لإظهار إهماله الشديد طالباً من المأمور مجازاته بالسجن.

و يتابع الضابط قراءة ما هو مدون بالكراسة عن خط السير رقم "٧".

" دورية يوم ٢٤ يناير "

ويقرأ ملاحظات أخرى مماثلة ...

هذه الكراسة، وما بها من معلومات مختلفة ... أحدثت أثرها بين الخفراء بالمركز تجاه الضابط ... فأصبحوا يعتقدون بأن ذاكرته قوية، وأنه لا ينسى شيئا.

انتهى الملازم من استرجاع تلك الملاحظات بسرعة، ثم نظر إلى ساعة يده، وجدها الثانية عشرة، وأربعين دقيقة صباحا ... إذن لقد بقى على موعد الدورية خمس دقائق فقط، جنديا الخيالة مستعدان بالخيل ... وبانتظار الضابط بفناء المركز، ومعهما حصانه الأبيض المخصص لركوبه ... يثبت بسرعة قيامه للمرور بالدورية بدفتر الأحوال، ومعه جنديا الخيالة المرافقان له... مثبتاً أرقام الخيل، وكذا أرقام الأسلحة التى معهم.

الآن ... تخرج الدورية فى موعدها المحدد بالضبط، خطوات الخيل . فوق الطريق الأسفلتى . تسمع دقاتها بقوة ... لاضجيج بالشوارع التى يخترقونها ... فالمحلات أبوابها مؤصدة، والبيوت أنوارها مطفأة، ونوافذها مغلقة ... فالبرد جعل الناس تهرب منه بالسعى إلى دفء الأسرة ... والنوم مبكرين.

لم تقابل الدورية أحدا من المارة ... اللهم إلا هذا العسكرى الموجود بأحد دركات قسم شرطة المدينة ... فتساءل الضابط محدثا نفسه:

" هل يا ترى يشعر أحد بهؤلاء الساهرين لحراستهم ؟ ".

... ولا يجيب على تساؤله .. وتمضى الدورية فى طريقها ... ينتهى كردون المدينة بطرقه الأسفلتية، ويبدأ خط سير الدورية بالطريق الترابى بين الزراعات.

الشعور بالبرد يزداد، والظلام يغطى الطريق ... ويحاول الضابط التسرية، وإبعاد الملل عن نفسه، فيتحدث مع جنديىّ الخيالة المرافقين له، إنهما دائما معه فى دورياته .. أحدهما هادىء الطبع، دمث الأخلاق ... لا يتحدث إلا نادرا.

بينما الجندى الثانى، على نقيضه، مكثار ... لكن فى أحاديثه طرافة، دائم التهكم على نفسه، وأحيانا قليلة على بعض من زملائه، وهذه الأحاديث والنوادر المسلية، كانت تهون عليهم مشاق الطريق.

وينطلق الجندى الثرثار فى الحديث، حيث تحدث الضابط عن برودة الجو، فيقول له :

. أنا يا بك... دعوت الله، أن تمطر الدنيا، لأجل الدورية تلغى، وتؤجل ليوم آخر، لايكون بارداً مثل هذا اليوم. ثم يكمل ثرثرته:

. الحكومة يا بك .. تخاف على الحيوان ... ولا تخاف على البنى آدم ... أول ما الدنيا تمطر.. تتأجل دوريات السوارى لكن بالنسبة للعساكر أو الخفر بالدركات .. يظلون فى أماكنهم .. حتى لو أمطرت الدنيا الثلج !.

لم يقتصر الأمر على الصعوبات التى تواجهها الدورية من حدة البرودة هذه الليلة فحسب ... فهناك صعوبة أخرى ظهرت، وهى الشبورة التى كست الطريق، وتكاد تحجب الرؤية ... وساعد على كثافتها أن الطريق يقع وسط الأراضى الزراعية، مما حدا الضابط، وهو يقود الدورية أن يبطىء فى سيره.

يشاهد سيارة تقف بجانب الطريق فى مواجهته يضىء سائقها كشافات الإضاءة ويطفئها عدة مرات متلاحقة، إنها سيارة " بوكس " خاصة بالشرطة ... بها أحد كبار الضباط من مفتشى المديرية، جاء ليتعقب الدورية.

حيّاه الضابط ... تبادلا كلمات التحية ... ناوله الضابط تقرير الدورية ... فوقّع عليه الضابط الكبير، مثبتا التاريخ والساعة ... انصرفا بعدها كل فى طريقه.

تمر دورية السوارى على إحدى القرى الصغيرة ... يثبت الضابط ملاحظاته عن خفرائها، ثم يكمل خط السير... وتتجه بعدها الدورية إلى آخر العزب الموجودة فى خط السير رقم"٧".

وهى العزبه المستجدة، التى سبق أن اطلع الضابط فى كراسته أن خفيرها " الأودن " غير منتظم، وأنه غالبا ما يوجد نائما بمنزله ... كان الطريق إليها ضيقا ومتعرجا.

الشبورة تزداد ... بينما مدى الرؤية يقل وأصبح سير الدورية أبطأ مما كان ... لقد قاربت الساعة على الثالثة صباحا ... ولم يكملوا بعد مرورهم، ومع مضى الوقت يقل مدى الرؤية عن ذى قبل، ويكون صوت أحاديثهم، وكذا صوت أقدام الخيل على الطريق، هو المرشد فى طريقهم، فالرؤية أصبحت شبه معدومة، ولم يجد كشاف الإضاءة الذى يحمله الضابط فى إنارة الطريق ... فأطفأه، وأعاده إلى موضعه.

تبطىء الخيل فى سيرها أكثر ... فالضابط أكثر حرصا فى سيره ... مما دعا جندى السوارى الطيب أن يتكلم، موجها حديثه للضابط :

ـ لو سمحت ياأفندم ... ممكن سيادتك تأذن لى ... بأن أكون فى المقدمة ... فأنا حافظ الطريق، وممكن نمشى أسرع ... إذا سيادتك سمحت .

ويأذن له الضابط بذلك، ولا يمانع، ويتقدم الجندىُّ الدوريةَ، ومن خلفه يسير الضابط ثم الجندى الثرثار ... وتسرع الخيل فى السير ... فهى تتأثر فى سيرها ... بخطى الحصان القائد ....

لم يمضِ على ذلك إلا دقائق قليلة، ثم يمزق سكون الليل صرخة عالية ... مع صوت سقوط جسم ثقيل فى مياه ... تقف الدورية على الفور ... تبين أن الجندى الطيب قد سقط بحصانه فى مصرف مجاور لهذا الطريق المتعرج ... ينزل الضابط من على حصانه على الفور ... يتبعه الجندى الثرثار ... يسمعان صوت حركة قوية فى المياه ... يودان أن يفعلا شيئا ... الجندى الطيب يصيح قائلا :

ـ يا خبر يا بك ... السلاح ... السلاح الميرى ...

وعلى الفور، يرد عليه الضابط قائلا :

ـ حاول تطلع الأول ... وبعدها ندور على السلاح ...

وتمر ثوان قليلة ... ثم يرتفع صوت الجندى مرة أخرى :

ـ الحمد لله .. الحمد لله .. يا بك .. السلاح موجود فى مكانه .. الحمد لله.

ويحمد الله الضابط للعثور على السلاح ...

ويخرج الجندى من مياه المصرف، وقد ابتل جسمه وملابسه أيضا ... وممسكا بسرع الحصان ... طالباً من الضابط وزميله معاونته فى شد الحصان لإخراجه ... يتعاونون جميعا فى ذلك، وينجحون، ويخرج الحصان ...

المياه تتساقط بغزارة منه ... يحرك الحصان جسده عدة مرات بسرعة، لينفض المياه عن جسمه، فيبتل الجميع من هذا الرذاذ ... وبجانبه وقف الجندى المبتل أيضا، وهو يضغط بيديه على ملابسه، محاولا عصرها.

هذا الموقف المأساوى ... لم يمنع الجندى الثرثار . كعادته . من المزاح مع زميله، فيقول له مداعبا، مقلدا صوته حين تحدث إلى ضابطهم، ليستأذن منه فى تقديم الدورية :

. لو سمحت ياأفندم ... ممكن سيادتك تأذن لى بأن أكون فى المقدمة، فأنا حافظ الطريق. ثم يضحك الجندى الثرثار بصوت عال مقهقها ... ويكمل كلامه، موجها إياه لزميله قائلا :

. فالح ... حافظ الطريق.

لايعلق أحد على حديثه ... والجندى الطيب لا يغضب منه ... بينما ابتسامه خفيفة علت على شفتى الضابط، منع الضباب من رؤيتها.

ينظر الضابط إلى الجندى المبتل ... ويحدثه وهو يحاول عصر ملابسه

. شد حيلك ... العزبة قربت ... وعند الشيخ حسن، شيخ العزبة، تجفف ملابسك أنت والحصان، أو تلبس من عنده هدوم جافة للصبح ... ثم ترجعها له ...

ثم يكمل الضابط حديثه متسائلا، عما إذا كان أحدهما يعرف منزل الخفير " الأودن " .. خفير العزبة .. فيجيبانه بأنهما يعرفانه، فيقول لهما :

. يلزم أول ما نصل العزبة ... نروح البيت عنده ... ونخرجه من البيت ... كي يكون إثبات بأنه كان موجودا بالمنزل.

وتبدأ الدورية فى معاودة سيرها بتمهل ... الضابط يتقدمها، بينما الجندى الطيب يسير على قدميه، ممسكا بحصانه فى آخر الدورية.

ها هم يقتربون من العزبة ... والضابط يفكر أثناء سيرهم، فى محتويات المذكرة التى سيكتبها عن الخفير، وقد أثبت وجوده بمنزله، تاركا خدمته ... يفكر فى ضرورة أن تحتوى المذكرة على الجزاءات السابقة للخفير، عن إهمالاته وغيابه فى الدوريات التى مرت على العزبة من قبل، ليدعم طلبه بمجازاته بالسجن، وليس بالخصم من راتبه ... حيث إن جزاء الخصم باليوم أو اليومين من المرتب، لا يجدى مع مثل هذا الخفير.

تقترب الدورية من العزبة أكثر.. فيشتد نباح الكلاب، وهاهى ذى مبانى العزبة بدأت تلوح من بين الضباب ...

فجأة يسمعون صوتا جهوريا يعترضهم، وصاحب الصوت يمسك بكشاف يضيئه، مسلطا نوره على وجوههم، وهو يقول :

. ها ..... من هناك ؟

إنهم لا يرون المتحدث ... لكن الجندى الثرثار يتعرف عليه من صوته، فيرد عليه قائلا :

. من ؟ ... الخفير " الأودن " .

ثم يكمل قائلا :

. ما سبب سهرك حتى الآن ؟

يتجه الخفير ناحية الدورية، ويُحيّى الضابط ...

يكتشفون أنه يضع بطانية صوف على ملابسه أيضا، ليخفف من برودة الجو ... حيث يبدو أن المعطف الصوف الذى يرتديه أسفل البطانية، ليس بكافٍ هذه الليلة.

يسترعى انتباه الخفير عدم ركوب الجندى الطيب حصانه ... يعلم بما حدث، فيخلع عليه البطانية .. ويدعوه ليُغّيَر ملابسه هذه طرفه بمنزله ...

بينما الضابط يحدث الخفير من فوق حصانه، مُنذراً بقوله :

. يا خفير ... أنت تتغيب كثيراً ....

يرد عليه الخفير قائلا :

. أنا لا أنكر أنى غبت قبل ذلك.. لكنى.. وقت الشدة تجدنى يا بك.

. ما معنى وقت الشدة يا خفير ؟

. يعنى يابك .. الليلة هذه .. الجو بارد جداً.. ولا يوجد أحد فى الغيط والناس ببيوتهم نائمون .. فيلزم أن أكون يقظاً حيث أن لصوص المواشى

تعمل فى مثل هذه الليالى.

. يا خفير يلزم أن تكون يقظاً فى كل الأيام

. حاضر يابك.

وتستريح الدورية قليلا ... ويغير الجندى الطيب ملابسه ... يتأمل الضابط خلالها ما حدث لهذا الجندى، مقررا بينه وبين نفسه، أنه لولا "المقدر والمكتوب "، لكان هو الذى سقط بحصانه فى المصرف، بدلا منه.

وتبدأ رحلة العودة ... بينما كلمات الخفير النظامى :

" وقت الشدة تجدنى" ..... تطن فى أذنى الضابط.

"٦"

تساؤلات ... ؟

مضى عام، على تخرج الضابط من كلية الشرطة، وحان موعد ترقيته هوّ وزملاؤه بالدفعة، إلى رتبة الملازم أول ... فأصبح يضع على كل كتف نجمتين، بدلا من واحدة.

كانت سعادته غامرة، فقد أصبح بذلك، مميزا عن زميليه الجديدين، اللذين ألحقا للعمل بالمركز، من خريجى دفعة يوليو، حيث تولى هو تدريبهما ومعاونتهما وإرشادهما فى عمل المحاضر، خاصة أنه اكتسب خبرة طيبة، فى الفترة السابقة، لاسيما، بعد أن توطدت علاقته بضابط مباحث المركز، الذى كان يشركه دائما، فى جميع الحملات التفتيشية ليلا، والتى كان يشرف عليها المأمور أو نائبه.

لم يكن الملازم أول يعى وقتها، أهمية الإخطارات بنتائج تلك الحملات التفتيشية، والتى كانت ترسل بإشارات تليفونية، لمديرية الأمن ولإدارة البحث الجنائى بها، عقب كل حملة، وكان يذكر فى هذه الإخطارات اسمه ضمن أسماء الضباط الذين شاركوا فى الحملة.

عرف الضابط أهمية الإخطارات بالنسبة له، حين أخبره المأمور . ذات صباح . عند حضوره للعمل، وبعد مرور عدة شهور قليلة من ترقيته، بأنه قد وقع عليه الاختيار، للقيام بعمل ضابط المباحث، فترة وجود الأخير بالإجازة، وأن مدير الأمن ورئيس المباحث لم يعترضا على ترشيحه للقيام بذلك،

حيث تبين أنهما يعرفانه، من خلال تردد اسمه كثيرا فى الإخطارات التى ترسل لهما.

أوضح المأمور للضابط بأن انتدابه لهذا العمل، سيستغرق فترة كافية، يمكن أن يظهر مهارته فيها، فقد حصل ضابط المباحث على إجازة شهر، للمذاكرة ولتأدية الامتحان فى إحدى كليات الحقوق . التى انتسب اليها . حيث كان من الدفعات السابقة، التى تخرجت دون الحصول على ليسانس القانون.

شجعه المأمور بكلمات طيبة، ليحثه على العمل، قائلا له :

. إن موافقة مدير الأمن تعنى ثقته فى قدراتك، ونفس الشىء بالنسبة لرئيس مباحث المديرية، وأنهما لولا يقينهما فى ذلك، لما وافقا على ترشيحك، ولأرسلا ضابطا من ضباط مباحث المديرية، للقيام بهذا العمل خلال الإجازة، وأنها فرصة عظيمة لإظهار كفاءتك فى عمل المباحث.

لم يقم ضابط المباحث بإجازته، إلا بعد أن شرح أسلوب إدارة مكتبه للضابط، كما حرص على تفهيمه، كيفية تشغيل العاملين، من مخبرين، ورجال تنفيذ الأحكام، وكيفية متابعة أعمالهم وجهودهم، ومروراتهم، والاستعداد للحملات التفتيشية من بداية الإعداد للتحريات .. ثم استصدار إذن النيابة .. وعلمه ضرورة تقسيم القوات إلى مجموعات برئاسة أحد الضباط، ليتم التفتيش فى وقت واحد فى البلدة الواحدة، هذا فضلا عما سبق أن تعلمه منه، أثناء ملازمته له فى الحملات التفتيشية،

وعند مصاحبته له فى المأموريات، أو عند جلوسه . أحيانا . معه فى المكتب، أثناء استشارته فى بعض الحوادث التى كان مكلفا بالتحقيق فيها.

تسلم ضابطنا . هذا العمل بمكتب المباحث . فكان فرحا لارتدائه الملابس المدنية وقت العمل، فهو يعرف جيدا القيود التى تصاحب ارتداء الملابس الرسمية، من ضرورة الالتزام، بالمظهر العسكرى، والذى كان حريصا على الالتزام به فى كل تحركاته وسكناته.

فرح أيضا بإعفائه من دوريات السوارى، النهارية أو الليلية، فكم قاسى منها فى ليالى الشتاء الباردة، وكذا فى الدوريات النهارية صيفا، حيث الشمس تنشر لهيب أشعتها القوية، لكن إعفاءه من ركوب الخيل، حلّ بدلا منه ركوب السيارة " اللورى" أثناء قيامه بالحملات التفتيشية، والمقررة عليه عدة مرات شهريا.

كان مقبلا على عمله، بروح طموحة متفائلة، مخلصا فى تأديته.

فى يومه الأول، لتسلمه العمل، تصادف وجود أحد المخبرين، ممن عملوا طويلا بالمركز، وأحيل للمعاش منذ شهر تقريبا.

علم المخبر بندب الضابط للعمل بالمباحث، فاستأذن فى الدخول إلى مكتبه ليهنئه وليكرر شكره له، حيث عاونه فى تعيين ابنته، بإحدى الشركات التى تربط الضابط بمديرها علاقة طيبة .. فأذن له. تبادلا كلمات التحية والمجاملة ...

أخبره الضابط أنه كان يتمنى ألا يحال للمعاش، وأن يكون معه فى هذا الوقت ..

أراد المخبر أن يرد على كلمات المجاملة هذه بطريقة عملية ... فأعطى الضابط أسماء بعض المزارعين، الذين . لدى المخبر . معلومات أكيدة عنهم، لإحرازهم أسلحة بدون ترخيص، وكذا اسم أحد كبار تجار المخدرات، والمعلومات اللازمة لذلك ... ذاكرا له أنواع الأسلحة التى يحرزونها، ثم رجاه ألا يعرف أحد من قوة المخبرين أو غيرهم، بأنه هو الذى أبلغه بهذه المعلومات.

لم يعرف الضابط سببا لرغبته هذه، لكنه نفذها، فلم يعلم بها أحد نهائيا بمصدر تلك التحريات.

عندما اقترب الموعد المحدد، للقيام بالحملة التفتيشية، طلب الضابط من المخبرين إفادته بالتحريات الموثوق بها، عن محرزى الأسلحة بدون ترخيص، أوالمتجرّين بالمواد المخدرة...

فوجد بعضهم يتكاسل، وبعضهم أجابه بأنه سيستعد بذلك خلال أيام، بينما شعر أن البعض الآخر منهم، يتهرب من تقديم مالديهم من تحريات، لعلمهم بأن رئاسة الضابط لهم مؤقته، ويفضلون إبراز جهدهم لضابطهم الأصلى.

لم يُعر الضابط اهتماما لموقفهم هذا، واستصدر إذنا من النيابة، بالتحريات التى قدمها له المخبر المُحال للمعاش ... وقسمّ القوات إلى مجموعات، برئاسة أحد الضباط.

اصطحب معه بالحملة ثلاثة ضباط، فضلا عن المأمور الذى يشرف على الحملة.

توجهت الحملة إلى القرية المقصودة بالسيارة " البوكس " الرمادية اللون الخاصة بالمركز، يتبعها "اللورى" الخاص بالمديرية، محملا بالمخبرين والمجندين المسلحين...

توقفت السيارتان خارج القرية ... ترجل الجميع ... ساروا جماعات. وفقا لتقسيمهم ... كل جماعة يرأسها ضابط، ومع كل منهم "اسم" من سيتم تفتيشه، كان لكل ضابط منزل واحد بالقرية، مكلف بتفتيشه.

ومع أول خفير نظامى . تقابلوا معه . اصطحبوه، ليرشدهم إلى المنازل ...

شوارع القرية كالحة السواد .. بعض الضباط والمخبرين يحملون فى أيديهم " بطاريات " للإضاءة ... فلم تكن "الكهرباء" قد أوصلت لجميع القرى بعد ...

الكلاب تنبح ... يتزايد نباح الكلاب ... يود الضابط . لو أنها تسكت قليلا . حتى لا توقظ من سيتم تفتيشهم ...

نبّه الضابط على زملائه . المرافقين له بالحملة . بأن يتم تجمعهم بعد انتهاء التفتيش عند " اللورى" خارج البلدة.

أخذ الضابط يدعو الله . فى سره . بأن يوفقه فى " الحملة " ... ثم قرأ الفاتحة ... عثر بالمنزل . الذى فتشه . على قطعتى سلاح بدون ترخيص... كانتا صناعة محلية ... اعترف صاحبها بحيازته لهما ... اصطحبه معه والقوات .. إلى موقع التجمع ...

وجد أحد الضباط المرافقين له بالحملة . وكان رئيسا لإحدى النقط التابعة للمركز . قد سبقه وعاد هو الآخر . بعد عثوره على سلاح بدون ترخيص . كما اعترف له أيضا صاحب المنزل بحيازته للسلاح.

انتظر الجميع عودة المجموعتين الأخريين... عادتا... كانتا برئاسة الضابطين الجديدين وعثر كل منهما على سلاح بدون ترخيص ... اعترف أيضا صاحباهما ....

الكل سعيد ... البسمة على الوجوه ... عدا بعض المخبرين الذين كانوا مبهورين ... وبالطبع عدا المتهمين ... وكان أكثر السعداء بنتائج الحملة هو المأمور.

توجهت الحملة . بعد ذلك . إلى قرية أخرى، لتفتيش أحد تجار المخدرات، ووفّقت الحملة فى العثور على المواد المخدرة، وتم ضبط المتهم، كانت الكمية المضبوطة، لا بأس بها.

ازدادت سعادة المأمور بنتائج الحملة ....

فسأل ضابط المباحث بالإنابة عن اسم المخبر الذى أعطاه هذه التحريات، ليشكره، أحاطه الضابط بموقف المخبرين، وأن هذه التحريات من عنده هو.

هدد المأمور المخبرين، قائلا لهم بأنه سينقل أى مخبر منهم، يُضبط فى المنطقة التى يعمل بها، سلاح بدون ترخيص أو مخدرات، ولا يكون هو مصدر تلك التحريات، عادت الحملة إلى المركز ... أخطر المأمور بنتائجها إلى المديرية ...

لم يمض يومان على الحملة، إلا ويَرِدُ للمأمور خطاب من "مدير الأمن" يُثنى فيه على من قاموا، بتلك الحملة، لنتائجها الطيبة ... كتب المأمور على خطاب الثناء لضابط المباحث عبارة : " يُعلن . مع التهنئة، ودوام التوفيق ".

فرح المأمور بذلك الثناء، وتوجه إلى مديرية الأمن، فى اليوم التالى، ومعه ضابط المباحث بالإنابة، لمقابلة مدير الأمن؛ ليشكراه على لفتته الطيبة بالثناء عليهم.

دخلا إلى مكتب مدير الأمن ... لم يستغرق ذلك إلاّ عدة دقائق .. شكره المأمور ثم أثنى على الضابط للمدير؛ مبرزاً جهوده، كرر المدير كلمات الثناء.

طلب منهما بذل المزيد من الجهد .. وشجع الضابط قائلا بأن له مستقبلا طيبا ينتظره ... انصرفا سعيدين، وعادا للمركز.

كانت هذه الزيارة؛ وتلك الكلمات التى قيلت؛ لها أثر طيب على الضابط كما كان تهديد المأمور للمخبرين سببا فى زيادة نشاطهم، ودافعا لهم، حيث تسابقوا فى تقديم معلوماتهم للضابط؛ وكانت معظمها ذات نتائج إيجابية.

ساعد على إنجاح الحملات التفتيشية، الفراسة التى يتمتع بها الضابط .. فعند دخوله أحد بيوت الفلاحين . هو وقواته . ويبدأ المخبرون فى التفتيش عن الأسلحة غير المرخصة أو البحث عن المخدرات . إن كانت مأموريتهم هى البحث عنها . كان يضع هو كل اهتمامه، فى مراقبة ساكنى المنزل، حيث تفضحهم نظراتهم التلقائية، والتفاتاتهم الكثيرة نحو المكان السرَّى المخبأة فيه تلك الممنوعات، سواء أكانت أسلحة أو مخدرات، وخاصة إذا ما اقترب منه المخبر القائم بالتفتييش،

فكان الضابط يأمر أعوانه من المخبرين بالتدقيق والتركيز والبحث فى ذلك المكان.

ساعد على ذلك ـ أيضا ـ أن معظم بيوت الفلاحين فى ذلك الوقت، لم تكن تُضاء بالمصابيح الكهربائية، بل بمصابيح "الجاز"، فكان الضابط يختار مكانا غير مضاء؛ ليقف فيه مشرفا على عملية التفتيش، ليرى منه وجوه أصحاب البيت ـ دون أن يلاحظوا هم ذلك ـ مركزا على نظراتهم.

وكان يلاحظ نظراتهم هذه أحيانا، وهو جالس، مُدَّعِياً البحث عن برغوث فى جوربه أو متظاهرا بالانشغال بشىء ما.

وتَعَوَدَ المخبرون منه ذلك فى حملاتهم، فكانوا يبحثون بجدية فى الأماكن التى يحددها لهم، دون أن يدروا سببا، لتحديده تلك الأماكن، مرجعين ذلك إلى تخمينه وحظه.

وأحيانا يفشل المخبرون، فى العثور على الشىء المراد البحث عنه، فى الموقع الذى حدده الضابط ... فيأمر مخبرا آخر بإعادة البحث فى ذات الموقع وبدقة أكثر، وغالبا يتم العثور على تلك الممنوعات ... بين تعجب باقى المخبرين لتلك الفراسة.

بدأ المخبرون فى تكوين علاقة طيبة، بينهم وبين ضابطهم هذا، مرجعها الاحترام والتقدير من ناحيتهم، ومعاملته الإنسانية لهم من ناحية أخرى، فضاعفوا من جهدهم.

لم يقتصر الحال على توفيق الضابط فى الحملات التفتيشية فحسب، بل تجاوز الأمر ذلك، حيث كان قد وقع فى هذا الوقت . أثناء انتدابه للمباحث . حادث هام، كان شغل الحكومة الشاغل، هو هذا الحادث.

فكان ذلك فرصة طيبة للضابط، لإظهار مهاراته وقدراته الأخرى فى فحص الشكاوى وكتابة التقارير المختلفة بالدقة المطلوبة.

فقد وقعت بإحدى قرى الوجه البحرى، جريمة قتل، لم تكن كأى جريمة يتم فيها البحث عن الفاعل، وضبطه هو والآلة المستعملة، ثم تقديمه للمحاكمة، انتظارا للحكم عليه.

فهذا الحادث أصبح حديث الكتاب والساسة فى الصحف والإذاعات، وأخذت آثاره تتصاعد.

فلقد تحول إلى حادث سياسى، القتيل فيه من المؤمنين بالفكر الاشتراكى، الذى كان سائدا فى ذلك الوقت، وله الغلبة، بينما أصابع الاتهام تشير إلى أحد أفراد الأسر الإقطاعية، والتى وضعت الثورة . منذ قيامها . ضمن أهدافها، القضاء على الإقطاع.

وهاهو الحادث يقع، مشيرا إلى أن الإقطاع مازال موجودا، رغم مرور ما يزيد على العشر سنوات من قيام الثورة، عرف هذا الحادث باسم القرية التى وقع بها، عرف باسم "حادث كمشيش".

استغلت هذا الحادث، بعض مراكز القوى، والتى كانت تتصارع من أجل المزيد من السلطات لها، وبسط نفوذها بالتالى على القوى الأخرى بالدولة، فما كان من الحكومة إلاّ أن قررت إنشاء لجنة عليا لتصفية الإقطاع، وأصبح لكل محافظة لجنة تباشر تنفيذ قرارات تلك اللجنة العليا، وبالتالى تكون بكل مركز أو مدينة لجان أصغر لتنفيذ تلك القرارات، ولمد اللجان الأعلى بالمعلومات التى يطلبونها.

وقع على ضابطنا . هذا . عبء كبير، مثل كافة ضباط المباحث... فهو مطالب بإعادة فحص جميع العائلات بقرى المركز، ممن يمتلكون ويحوزون أراضٍ زراعية كبيرة، لذلك كان مكتبه فى حركة دائمة، لمتابعة ما يقدمه مأمورو الضرائب العقارية، من بيانات، عن ممتلكات تلك العائلات، ومناقشتهم فيها، لتقديم تقرير بذلك.

كان الضابط دقيقا فى عمله ... فزاد العبء الملقى عليه، وتضاعف الجهد الذى يبذله فلم يجد وقتا للراحة أو تناول الغداء بمنزله، فاقتصر الأمر على تناول "الساندوتشات" بالمكتب فاللجان العليا ... طلباتها كلها . كان مطلوباً الرد عليها على وجه السرعة.

لم تكتف تلك اللجان، بطلب إعادة فحص الممتلكات والحيازة، بل تفتق ذهنها عمّا سمى وقتها بالإقطاع الوظيفى ... فطلبت فحص العائلات

أيضا، من حيث الوظائف، فلا يصح أن يكون العمدة، وشيخ الخفراء، ومشايخ البلد ... لهم صلة القربى حتى الدرجة الرابعة وإلا كان ذلك إقطاعا وظيفيا ... وعلى اللجان العليا النظر فى ذلك الأمر، وهل يمثل خطورة أم لا ؟.

وكذلك الحال بالنسبة للجان الاتحاد الاشتراكى فى القرى، والتى كانت تعرف بلجنة العشرة... فأعيد فحصهم، لمعرفة ما إذا كان هؤلاء الأعضاء، أقارب حتى الدرجة الرابعة أيضا من عدمه.

وكان على ضابط المباحث المسكين، سرعة الرد على طلبات اللجان العليا فى زمن قصير. ويعود مكتبه ليمتلىء بالعمد ومشايخ البلاد للإفادة بمعلوماتهم، والتوقيع عليها، وأصبح اسم ضابط المباحث مكتوبا على كل تقرير يرفع لرئاسته بالمباحث.

أحيانا ما كانت تتم مناقشة بعض هذه التقارير تليفونيا، بينه وبين رئيس المباحث، أو ضباط مباحث المديرية، فيجدونه حاضر الذهن، ومعلوماته أصبحت غزيرة، وملما بكافة الموضوعات التى يستفسرون عنها.

ساعدت هذه الأعمال على معرفة الضابط بكل رجال الإدارة بالمركز، من عمد ومشايخ للبلد، ومشايخ للخفراء، وكذا معرفتهم به، فضلا عن أمناء الاتحاد الاشتراكى بالقرى، ومأمورى الضرائب العقارية بالمركز، تم ذلك كله فى تلك الفترة القصيرة ... أصبح اسمه معروفا أيضا للمسئولين فى كل بلاد المركز.

كانت الأمور السياسية بالبلد . وقتها . تسيرها تلك الصراعات بين مراكز القوى المختلفة. وقد أحدث ذلك بلبلة فى فكر بعض المواطنين ،

وانتهز البعض منهم هذه الفرصة، فاستخدموا الشكاوى المجهولة، للنيل من خصومهم، فكانت، تصل إلى الضابط شكاوى عديدة مجهولة. كانت صور تلك الشكاوى ترسل لعدة جهات، خاصة للمباحث الجنائية العسكرية بالمحافظة. فقد علم المواطنون بأنه يوجد . وقتها . بكل محافظة ضابط رئيس للمباحث الجنائية العسكرية، وأنها أصبحت مختصة بفحص شكاوى المواطنين، بحجة القضاء على الإقطاع.

وكان هذا الجهاز الحديث، يهابه المواطنون . وقتها... ولم لا؟ ... وقد كان رئيس اللجنة العليا لتصفية الإقطاع، هو القائد العام للجيش ... وهو الرجل الثانى فى الدولة.

وكثيرا ما شارك الضابط، مجموعة من مندوبى المباحث العسكرية بتفتيش مساكن بعض المواطنين من المشكو فى حقهم . فى شكاوى أرسلت لهم . وكان يتعجب وقتها الضابط، على الازدواج فى العمل، وتجاوز الاختصاص ... لكنه كان يطيع أوامر رؤسائه بمرافقة مندوبى الشرطة العسكرية، بناء على طلبهم، فى تفتيش تلك المساكن دون أن يحيطوه سببا لذلك التفتيش، ودون أن يحاط أيضا، بمضمون تلك الشكاوى.

ولقد استفاد ضابطنا . هذا بطريق غير مباشر، من كثرة الشكاوى المجهولة ... فقد كان عليه فحصها بدقة وعناية، خاصة أنه يعلم أن صورا منها، ترسل لعدة جهات أخرى لفحصها ولقد كان لفحصه الدقيق، إبرازاً لجهوده فى كتابة تقارير الفحص أيضا ... مما دعا رؤساؤه إلى الإشادة بذلك. فى هذا الجو المتخم بالعمل، وفى مساء أحد الأيام، يطلب مدير الأمن،

عقد اجتماع عاجل بمكتبه، يحضره كبار الضباط بالمديرية والمأمورون ومعهم ضباط المباحث جميعا... يخبر المدير المجتمعين باستشهاد بعض ضباط وجنود من الشرطة، فى معركة كبيرة فى الصحراء، أثناء مطاردتهم لبعض تجار المخدرات، فى محاولة لضبطهم وضبط المخدرات، التى بحوزتهم.

يخبرهم أيضا بأن وزير الداخلية، أمر بتفتيش منازل أكبر عدد من تجار المخدرات، فى كافة الأنحاء، وضبط كبار التجار منهم، تمهيدا لاعتقالهم، ردا على هذا الحادث.

أمر المدير أن يتم تنفيذ ذلك اليوم. فى حملات تفتيشية مكبرة، بإشراف كبار ضباط المديرية ونبه بأن يتم ذلك، بسرية شديدة، لإنجاح تلك الحملات.

عاد المأمورون، ومعهم ضباط مباحث مراكزهم، إلى عملهم فورا.. تم استصدار أذونات النيابة، بتفتيش كبار تجار المخدرات .... تحركت الحملات ليلا .... تم التفتيش وضبط المطلوب منهم.

كان . ضابطنا هذا . أكثر توفيقا ... فتم ضبط أكبر عدد منهم ... كان جهده واضحا. ومع هذا الجهد المضنى ... ومع العمل الشاق ... مرت الأيام سريعا .....

انتهت فترة انتدابه للعمل بالمباحث، وعاد ضابط المباحث الأصلى للمركز، وتسلم عمله، بينما عاد . ضابطنا هذا . لارتداء الملابس الرسمية، ولدوريات السوارى الليلية والنهارية، مع أمل يراوده، فى أن يكون هذا الجهد الذى بذله، مزكيّا له لترشيحه للعمل فى مجال المباحث، فى الحركة الداخلية بالمديرية.

مرّ على ذلك شهران، صدرت الحركة العامة السنوية للشرطة فى نهاية شهر يوليو وبعدها بأيام صدرت الحركة الداخلية لضباط المديرية، والتى أعدها مدير الأمن.

وجد الضابط أنه قد عُيِّن فعلاً ـ فيها ـ ضابطا لمباحث المركز الذى يعمل به، بينما نقل ضابط المباحث، لموقع آخر بالمباحث.

كانت فرحته كبيرة ... توافد زملاؤه عليه ليهنئوه.

وفى أمسية، عندما اختلى بزميل قديم له، حضر إليه لتهنئته أيضا ... دار بينهما نقاش جدلى، حول تساؤل واحد هو :

هل جهد الإنسان فقط هو الذى يوصله إلى المنصب الذى يرجوه ؟

أم أن القدر هو الذى يلعب دوره ... كما نشاهد ذلك كثيرا فى الحياة ؟

صديقه رأى أن جهد المرء فقط هو الذى يحقق له آماله.

بينما ـ ضابطنا هذا ـ يطرح عليه تساؤلات ازدحمت برأسه الصغير ... ضاربا مثالا، بتعيينه بالمباحث ... تساءل :

ـ ماذا لو لم يأخذ ضابط المباحث الأصلى إجازته الطويلة هذه ؟

ـ ماذا لو لم يوفق فى أول حملة تفتيشية، وهى التى ساعده المخبر بالمعاش على نجاحها ؟

ـ ماذا لو لم تقع تلك الحوادث الهامة فى فترة انتدابه بالمباحث، والتى بسببها ظهرت قدراته ومهاراته ؟

. ثم ماذا لو أن مدير الأمن، ورئيس المباحث، كانا قد نقلا إلى خارج

المديرية فى حركة التنقلات العامة، وهما اللذان يعرفان جهده ؟

واسترسل مع صديقه فى نقاش حول هذه التساؤلات . حيث تمسك كل منهما برأيه ... ولم يقطع نقاشهما إلا دخول مخبر لضابط المباحث محييا، ومقدما له إشارة تليفونية تفيد بوقوع حادث قتل، بإحدى القرى .... فيسرع بالانتقال إليها ... مستئذنا من صديقه .... ليبدأ رحلة التعب، لإبراز جهده من جديد.

"٧"

شكاوى مجهولة

جلس ضابط المباحث بمكتبه، يتفحص باهتمام ذلك الخطاب المرسل إليه باسمه، ويعيد قراءة الشكوى المجهولة التى بداخله، عدة مرات، إنه يهتم بمحتويات الشكوى، لا لأنها تكشف عن وقوع جريمة يجب عليه التحرى عن صحتها، واتخاذ الإجراءات اللازمة لذلك، بل لأجل ماورد بالشكوى عن أحد أطرافها، لتستره على الجريمة، وهو شيخ البلدة، الذى تربطه بضابط المباحث علاقة قوية، فلقد كان هذا الشيخ موضع ثقته مدة طويلة، فهو الشخص الوحيد من رجال الإدارة بالبلدة الذى يكلفه ضابط المباحث بكل شىء هام، ويحيل إليه المنازعات والمشاكل المستعصية، فيحلها وينجز ذلك فى زمن قصير، وبرضاء الأطراف جميعها. عرف عن شيخ البلد هذا بأنه رجل ضابط المباحث القوى، فكان الجميع بالقرية يعملون حسابا لهذه العلاقة القوية بينهما، والتى كان يجاهر بها كل منهما.

كان شيخ البلد هذا ذا سمعة طيبة للغاية، فهو رجل نظيف، وغير مرتش ولا يستغل منصبه، فكان مثالا طيبا لرجل الإدارة الناجح، النشيط فى عمله، ولقد ساعد على ذلك حلو حديثه، وقامته الطويلة، وملبسه النظيف المتناسق .. فكان له هيبة تجبر كل من يتعامل معه على احترامه ... ولكن كل هذا لم يمنع من إرسال تلك الشكوى المجهولة ضده.

فكر ضابط المباحث أول الأمر فى إهمال الشكوى وتركها دون أن يكلف أحد أعوانه من المخبرين بفحصها أولا، خشية إحداث شوشرة على سمعة شيخ البلد ... لكنه سريعا ماغير فكره، وحسم أمر الشكوى بضرورة فحصها بمعرفته شخصيا، وبطريقة سرية حتى لا تؤثر فى سمعة شيخ البلد، لاسيما أنه يعتقد بأن الفحص ربما يثبت أنها شكوى كيدية.

كانت الشكوى تتضمن أن أحد أبناء زوجة شيخ البلد . قد اغتصب فتاة أثناء وجودها بالحقل، وهذه الفتاة هى كبرى بنات أحد الفلاحين الأجراء الذين يعملون طرف شيخ البلد. وقد ذكر بالشكوى اسم الفتاة واسم والدها، وأن والد الفتاة قبل هذا الأمر كارها خشية البطش به وطرده هو وبناته وهو المعدم الفقير، على أمل أن يتم تزويجهما ... وماذا يفعل غير ذلك وهو يعلم بصلة شيخ البلد بمسئولى المركز وخاصة ضابط المباحث !

على الفور استدعى ضابط المباحث شيخ البلد ليحادثه من تليفون القرية، وأفهمه بأنه يتحدث إليه فى موضوع . يرى أن يعامل بسرية لمصلحته . ثم أعلمه بما جاء بالشكوى ضده، وكلفه بضرورة حضوره هو والفتاة المشكو فى حقها، لسؤالهما عن معلوماتها، وفحص ما إذا ما كانت الشكوى صحيحة أم كيدية ... وطلب الضابط منه عدم التأثير على الفتاة أو إرهابها ... فالفصل فى صحة الشكوى سيكون للطبيب الشرعى، حيث أنه هو وحده الذى سيقرر ما إذا كان قد وقع اعتداء على الفتاة من عدمه، وأنهى الضابط المكالمة، طالبا منه الحضور صباح اليوم التالى ومعه الفتاة ... وأوصاه ثانية بأن هذا الموضوع يجب أن يتم فى سرية.

فى صباح اليوم التالى، وفى الموعد المحدد، حضر شيخ البلد ومعه فتاة فى السادسة عشرة تقريبا، مرتدية ملابس ريفية، رقيقة الحال، ودخلا إلى مكتب ضابط المباحث .. وبعد تبادل التحية بين الضابط وشيخ البلد .. سأل الضابط الفتاة عن اسمها شفاهة، فأجابت بالاسم الذى ورد بالشكوى... وسألها عما اذا كان أحد قد اعتدى عليها أو حاول الاعتداء .. فنفت ذلك ... عاود سؤاله هذا مرة أخرى للفتاة، فنفت مؤكدة عدم وقوع اعتداء عليها.

ولقد سعد ضابط المباحث بإجابة الفتاة .. فهو كان يتمنى أن تكون هذه الشكوى كيدية ... وعلى الفور قام الضابط بتحرير محضر تضمن ما جاء بالشكوى ... وأجابت الفتاة بنفس إجابتها السابقة، مؤكدة بعدم وقوع اعتداء عليها ... وتبين أن الفتاة أمية لا تعرف الكتابة أو القراءة، فلم توقع على المحضر ولكنها بصمت بإصبعها عليه ... ثم سأل شيخ البلد عن معلوماته فأكد عدم صحة الشكوى ، هو الآخر.

وأقفل الضابط المحضر عقب ذلك على أنها شكوى كيدية من مجهول. وقيد المحضر برقم إدارى. وانصرف شيخ البلد والفتاة معه، شاكرا الضابط . الذى لم يقم بعرض المحضر مع الفتاة على النيابة . حيث أيدت عدم صحة الشكوى نهائياً، ومكتفيا بإرساله بمفرده.

مرت أيام ... تقترب فى عددها من الأسبوع .. وإذ بخطاب آخر يصله وبنفس الخط السابق إلى ضابط المباحث، وبداخله شكوى أخرى بتوقيع " مواطن صالح "، تتضمن هذه المرة أن شيخ البلد هذا قام بالتزوير، حيث أحضر معه الشقيقة الصغرى للفتاة التى اعتدى عليها وليست الفتاة ذاتها، وأن الشاكى ينصح ضابط المباحث بتصحيح الوضع،

وسؤال الفتاة ذاتها حتى لا يظن به أهل القرية ممن يعلمون بالحادثة، أنه هو الذى ساعد شيخ البلد على ذلك ... وأنهم . فى حالة عدم اتخاذ الإجراءات القانونية اللازمة . فسوف يرسلون شكاوى عديدة لكل الجهات.

لم يصدق ضابط المباحث ما جاء بالشكوى . هذه المرة أيضا. وأعتقد أن مرسلها يريد الاستمرار فى النيل من شيخ البلد، لما له من وضع متميز وعلاقة طيبة مع ضابط المباحث، لكن ساورته الشكوك، وأراد أن يقضى على الشك باليقين، فكلف أحد المخبرين بالتحرى عن تلك الشكوى من ثقات بالقرية، ودون إحداث شوشرة .... وكانت المفاجأة له أن عاد المخبر ذاكرا له أن الكثير من أهل البلد يعلمون بتلك الواقعة، وأن الواقعة صحيحة... وأن الفتاة التى حضرت وسئلت بالمحضر هى الشقيقة الصغرى، فعلا، وليست الفتاة التى اعتدى عليها ..... وأن شيخ البلد تصرف هكذا، اعتقادا منه أنه سيتم إرسال الفتاة إلى الطب الشرعى ... فأحضر أختها التى ادعت بأنها هى الفتاة المجنى عليها، وأضاف المخبر بأن شيخ البلد لم ينجب من زوجته التى كانت متزوجة من آخر قبله، وهذا الابن يعتبره شيخ البلد، ابنا له، فتستر على جريمته.

غضب ضابط المباحث غضبا شديدا، وفى الوقت نفسه حزن أيضا حزنا عميقا، فشيخ البلد هذا، لم يكن كأى شيخ بلد آخر من مشايخ المركز، إنه يعطيه كل ثقته، ومن مدة طويلة، كان يعتقد أنه لا يمكن أن يكذب عليه أو يخدعه فى يوم من الأيام .. إن فعلته هذه معه يجب أن يحاسب عليها ..

فأرسل فى استدعاء شيخ البلد، وابن زوجته، والفتاتين ووالدهما ... ثم سألهم فى محضر، وأرسلهم جميعا إلى النيابة، مشيرا إلى واقعة التزوير التى تمت فى المحضر الإدارى السابق.

لم يكتف الضابط بذلك، بل حرر تقريرا بالواقعة، أرسله لرئاسته بالمديرية حيث قامت اللجنة المختصة بالعمد والمشايخ بفصل شيخ البلد من عمله.

مرت عدة سنوات ... نقل خلالها الضابط للعمل فى موقع آخر... وذات يوم وهو مسافر بالقطار، تصادف أن جلس بجواره، أحد مواطنى تلك القرية، والذى عرف الضابط فتجاذبا أطراف الحديث فى عدة أمور، ألقى خلالها هذا الشخص عبارات المجاملة بإعجابه الشديد به، وبسمعته الطيبة التى تركها بالمركز بعد نقله ...

وسأله الضابط :

. وكيف حال شيخ البلد " فلان " الآن ؟

. تعيش أنت... بعد فصله... مرض ومات... وناس قالت أنه مات حزنا على المشيخة.

ساد الصمت بعدها قليلا، تساءل . خلاله . الضابط، مع نفسه، قائلا :

. لو أنه لم يحادث شيخ البلد تليفونيا وكلف المخبر بالتحرى عن الشكوى الأولى فور ورودها، ألم يكن الأمر سيتغير؟. فلا يكون هناك مجال لشيخ البلد لأن يزور، وبالتالى فلا يفصل، أم أن هذا يا ترى كان قدره ؟.

"٨"

بالسماء عدالة

حوالى العاشرة صباحا من أحد أيام الجمع، حيث اعتاد نائب مأمور المركز أن يجلس فى بداية عمل اليوم بحديقة المركز، ويلتف حوله فى مجلسه ضابط المباحث وبعض الضباط يتحدثون، ويتصفحون الجرائد الصباحية، ويتبادلون التعليقات على ما بها من أخبار، أو حوادث هامة، وقد يتناولون الشاى أثناء ذلك ... فالاستمتاع بجمال حديقة المركز، أو الجلوس بها، أمر لا يتمكنون منه إلا فى هذا الوقت، حيث أن يوم الجمعة هو الراحة الأسبوعية للموظفين المدنيين بالمركز، وأيضا بالنيابة ككل مصالح الدولة ... فيهدأ العمل نسبيا فى ذلك الوقت أيضا بالمركز، ويقتصر على البلاغات والحوادث، فضلا عن إجراءات المرور الأمنى.

وبينما الضباط يستمتعون بهذا الجو الهادىء، إذ سمعوا صياحا لأحد الفلاحين يريد دخول المركز، لكن جندى الحراسة المعين على الباب يمنعه من الدخول، إلاّ بعد أن يريه ما بداخل المقطف، الذى يحمله تحت إبطه مغلقا، والفلاح يُصِرُّ على عدم رؤية أحد ما بداخله، إلاّ للمأمور شخصيا، لأن بداخله جسم الجريمة ....

استرعى هذا الحوار . بين جندى الحراسة والفلاح . انتباه ضابط المباحث، فسمح للفلاح بالدخول، وناداه حيث يجلسون، ثم بادره بالحديث:

. ما الخبر ؟ ... ما الذى معك ؟

. أريد الإبلاغ عن جريمة ... وأريد البك المأمور شخصيا.

يشير ضابط المباحث إلى نائب المأمور بيده ويقول:

. البك المأمور أمامك ... ماذا حصل ؟

. لأ ... أنه ليس البك المأمور ... العسكرى قال إن البك المأمور فى البيت والموضوع خطير، أريد البك المأمور شخصيا، لدى أقوال له.

يكاد ينفذ صبر ضابط المباحث فيحدثه بشدة قائلا:

. يا رجل تكلم ... البك المأمور فى الراحة لأن اليوم الجمعة، والبك نائب المأمور هو المأمور اليوم، وأنا ضابط المباحث ... ما الجريمة التى تريد الإبلاغ عنها ؟ وما الذى معك ؟

يجلس الفلاح على الأرض ممدداً رجليه، واضعا بينهما المقطف الذى لازال مغلقا. كان يرتدى جلبابا متسخا، أزرق اللون .... بقدميه بلغتان قديمتان، وعلى رأسه منديل محلاوى كبير معقود فوق جبينه ... تظهر آثار لفحات الشمس على وجهه، وله عينان ضيقتان، تبدو التجاعيد واضحة على جبهته، وأسنانه صفراء متباعدة، وله شارب خفيف غير منسق، أما يداه فهما كبيرتان وخشنتا الملمس من جراء إمساك الفأس أثناء العمل بالحقل.

أطال الفلاح النظر إلى الضباط الذين كانوا شغوفين لسماع الجريمة التى يحمل بالمقطف الذى معه آثارها، وقال لهم :

. أنا أحضرت معى جسم الجريمة.

وبهدوء يفتح القفة ... ويظهر فيها عيدان وأوراق شجر قطن وديدان قطن كبيرة ... ويكمل الفلاح حديثه للضباط :

. شوفوا يابكوات .. كيف أن ديدان القطن كبيرة جداً ... وأن ورق الشجر هذا مرشوش بمبيد بمعرفة رجال المشرف الزراعى .. والمصيبة أن كل الحيوانات تموت لو أكلت أى شىء مرشوش .. إلا دودة القطن .. انظروا إنها تأكل بنهم ورق وعيدان شجر القطن .. ولكنها لازالت تعيش.

يرد عليه أحد صغار الضباط قائلا :

. يارجل ما هذا القرف على الصبح ... قم وخذ قفتك واذهب لمديرية الزراعة .

. اذهب للزراعة .. كيف .. أنا جئت لكم لاشتكى الزراعة .

ويتدخل نائب المأمور طالبا من أحد الضباط سؤاله فى محضر واثبات الحالة وإرسال تقرير بذلك لمديرية الزراعة. ويصطحب الضابط الفلاح معه .... ويتجه الضباط عقبها إلى مكاتبهم ... ويصعد ضابط المباحث إلى مكتبه، فيحدثه أحد المخبرين، والذى علم بشجار الفلاح مع الحارس، ثم تابع بعدها شكواه قائلا :

. الفلاحين معذورين يابك ... الحالة سيئة هذا العام فى القطن ... والناس لا تعرف هل المبيدات غير نافعة أم يغشونها ؟.

ابتسم ضابط المباحث ابتسامة خفيفة وقال للمخْبر:

. يغشونها ؟ ... وحتى المبيدات يغشونها ياعم محمد ؟ .. كيف ؟

. والله يابك أنا سمعت أنهم يغشونها ؟.. ويوجد رجل تبع النقطة "الفلانية" .. الجمعية الزراعية استأجرت دكان فى بيته لأجل أن يخزنوا بها صفائح مبيدات الرش .. ومن يريد زراعته ترش جيداً .. يدفع له ويأخذ

المبيد الأصلى من غير أن يغشوه.

يهتم ضابط المباحث بحديث المخبر، بينما صورة الفلاح الذى كان أمامه منذ لحظات وحديثه عن المبيدات بأنها لم تؤثر فى الدودة أصبح لها معنى جاد فى فكره، فيسأل المخبر بسرعة :

. تعرف اسم هذا الرجل ؟ ..... وتعرف بيته ؟

. لأ... لم أهتم بهذا الموضوع... على أساس انه غير داخل فى شغلنا.. والذى قال لى ذكر يابك أن هذا الرجل شغال فى هذا الموضوع من السنة الماضية .. وقال أنه كان لديه السنة الماضية جاموسة واحدة .... والآن لديه خمس بهائم.

ويطلب ضابط المباحث من المخبر سرعة عمل التحريات اللازمة عن هذا الرجل فورا، استعدادا لعمل إذن بتفتيش مسكنه، وذلك بعد التأكد من صحة ما ذكره.

فى اليوم التالى، يؤكد المخبر المعلومات التى سبق أن ذكرها للضابط، تم استصدار إذن من النيابة على الفور، ثم توجه الضابط ومعه مجموعة من المخبرين بسيارة المركز " البوكس" متجهين لتلك القرية، حيث منزل المتهم .. يسرعون بتفتيش منزله، وكذا بحظيرة المواشى بداخل المنزل .. ووجدوا فعلا صفائح المبيدات موجودة فى جزء من الحظيرة، وقد وضع حاجز خشبى بين المواشى الخمس، وبين تلك الصفائح، حرصا على سلامة المواشى ...

وقد أمر الضابط بوضع تلك الصفائح، وكانت رائحتها نفاذه، داخل سيارة المركز " البوكس"، واصطحب معه المتهم، الذى لم يجد أى شىء يدافع به عن نفسه، فظل صامتا ... ولم يسأل ضابط المباحث المشرف الزراعى أو أمين المخزن عن معلوماتهما، لعدم وجودهما، فضلا عن أن المتهم ليس له صلة بالجمعية، سوى أن الجمعية تستأجر منه محلا يخزنون به صفائح المبيدات بداخله وأن مفتاح باب المخزن موجود طرف أمين مخزن الجمعية، وعلى ذلك فضل الضابط أن يتم سؤالهما بالنيابة، وأن يسرع بعرض المحضر عليها.

قام الضابط فعلا بالانتهاء من تحرير المحضر اللازم، وعرضه على وكيل النيابة، الذى أمر بحجز المتهم لليوم التالى، مع طلب المشرف الزراعى وأمين المخزن المختص، وتقديم بيان بجرد العهدة الخاصة بالمبيدات التابعة للجمعية، والموجودة بالمحل.

قام الضابط بدوره بإبلاغ النقطة التى تتبعها القرية بطلب وكيل النيابة، لإعلان المشرف وأمين المخزن بها للحضور.

ظهر اليوم التالى ... كان الضابط يروح عن نفسه بعض الوقت بالوقوف أمام نافذة حجرة مكتبه، فشاهد جمعا من الفلاحين، يتقدمهم محام شاب يعرفه، يتجهون إلى باب المركز .. ولمح بينهم المتهم ومعه عسكرى ممسكا بأوراق بيده .. إنهم عائدون من النيابة بعد أن انتهت من تحقيقاتها كما يبدو .. إن المتهم يبتسم .. بل كل من حوله فرح من الرجال والنساء .

يعود الضابط للجلوس إلى مكتبه ... توقع أن يكون قرار النيابة بإخلاء سبيل المتهم بالضمان المالى ... و إلا فما هو سبب سعادة المتهم وأقاربه ؟

حدث نفسه بأنه كان يتوقع أن تحبسه النيابة أربعة أيام على الأقل .... فالجريمة خطيرة ... ويجب أن تردع من هم على شاكلته ...

يدخل المحامى الشاب مبتسما ومحييا . ومن خلفه الجندى والمتهم . يرحب به الضابط ... إنهما يتبادلان المحبة والتقدير بينهما ... ولكنهما يتنافسان ويشعر كل منهما بالانتصار على الآخر. وفق ما يصدره وكيل النيابة من قرارات بالنسبة للقضايا التى يحررها الضابط، ويحضرها هذا المحامى عن المتهم .. فإذا أصدر وكيل النيابة قراره بحبس المتهم .. شعر الضابط بالزهو والانتصار على المحامى .. أما إذا أخلى سبيله .. فهذا الانتصار يحسب للمحامى .. وها هو المحامى يضحك مع الضابط قائلا:

. إخلاء سبيل المتهم بضمان بطاقته ... ونريد سيادتك تخلى سبيله لأجل يروح لعياله ... ويكفى ليلة أمس بالحجز.

يطلع الضابط على الإفادة الواردة من النيابة ويتبين صحة ما قرره المحامى .. يكظم الضابط غيظه .. يخرج المتهم والجندى .. ويتحاور الضابط مع المحامى، ويفهم منه أن المتهم أبدى تبريرات لقنها له المحامى فضلا عن أن الجرد أثبت أن محتويات المخزن سليمة ... ولا يوجد عجز بعهده أمين المخزن .... ويقر الضابط بينه وبين نفسه بأنه تعجل فى عمل المحضر وإرساله للنيابة ... ويصر الضابط على طلب كوب من الشاى للمحامى ... ثم تبادلا الحديث فى موضوعات شتى ... وكان هذا تغطية للغيظ الذى أحس به الضابط بإخلاء سبيل هذا المتهم، ومحاولا ألا يشعر به المحامى.

وبينما هما على هذا الحال .... اذ يسمعان صراخاً وولولة نسوة ... أمام باب المركز ... يستدعى الضابط أحد المخبرين لاكتشاف الأمر ... دقائق ويدخل المخبر الذى قدم التحريات عن هذا المتهم .... يدخل فرحا، ويبلغ ضابط المباحث :

. المواشى الخمسة المملوكة للمتهم ... ماتت ياأفندم ... بعد ما ضبطنا صفائح المبيدات ... أهل المتهم أزاحوا الحاجز الخشبى الذى كان بين المواشى والصفائح ... لعدم الحاجة إليه ... ووضعوا أكل البهائم فتلوث من آثار المبيدات التى كانت على الأرض أثناء عملية الغش ... أكلت البهائم الصبح وماتت على الفور ... أخت المتهم أتت تبلغهم.

يطلب ضابط المباحث أوراق المتهم، ويؤشر عليها بإخلاء سبيله، ويصافح المحامى مودعا قائلا له :

. لا تنس ... بالسماء عدالة.

"٩"

تهنئة بالمقابر !!

عاد ضابط المباحث إلى عمله، بعد انقضاء إجازته الصيفية، والتى قضاها بأحد المصايف، لقد كان فى حاجة إليها، ليّروح عن نفسه، بعد عناء العمل مدة طويلة.

تقابل مع زملائه فى العمل، مرحبين به، متبادلين معه أحاديث سريعة متنوعة، يسودها المحبة والود، ثم توجه إلى مكتب المأمور الجديد للمركز، الذى تسلم عمله حديثا، خلال وجوده بالإجازة، ليهنئه بمنصبه الجديد.

وبعد أن تبادلا التحية، أخبره المأمور أن تلك الفترة القصيرة، وقعت فيها عدة حوادث جنائية كثيرة، أمكن كشف غموضها، ومعرفة مرتكبيها .. عدا حادثة واحدة ... وهى العثور على جثة لغلام، فى الثالثة عشرة من عمره تقريبا، شخصيته مجهولة، ولم يستدل عليها حتى الآن لقد وجد مصابا بعدة إصابات بآلة حادة، وعثر عليه بالزراعات، المجاورة لشريط السكة الحديد.

لقد عمل المأمور فترة طويلة بالمباحث، وكان ضابطا مرموقا، لذا كان حديثه، حديث الفاهم لعمله، طالبا تركيز العمل، فى معرفة شخصية القتيل أولا، وبعدها تستكمل الإجراءات .... ودعا له بالتوفيق .

توجه ضابط المباحث بعدها إلى مكتبه، فاستقبله معاونوه بترحاب، سرّ له، وتحدث بعضهم عن الحوادث التى وقعت بالمركز طوال فترة الإجازة، وقد أعدوا له بيانا بها جميعا. ثم تطرق الحديث إلى "حادثة العثور على جثة غلام"، وهى القضية المجهولة، حيث قدم له " بلوكامين" المباحث ملفا . أعده له عن

هذا الحادث، فتصفحه بسرعة... ووجد به صورة الإشارة التليفونية، للإبلاغ عن العثور على الجثة، وبها أوصافه، وأوصاف ملابسه، وآثار الجروح التى فى رقبته ووجهه ويديه، كما وجد بالملف صورا للمجنى عليه، أخذها له المختص. كما وجد بيانا عن بلاغات بالغياب، للعديد من الأشخاص فى مثل سنه، والتى أبلغ بها قبل اكتشاف الحادث وبعده وقرارات النيابة التى أصدرتها عقب التحقيق، وأيضا صورة من التقرير الأولى من الطب الشرعى . بعد تشريح الجثة . يفيد بأن الوفاة جنائية. كما احتوى الملف على بعض الأوراق الأخرى، المتعلقة بالموضوع.

تناقش الضابط مع بعض المخبرين، الذين شاركوا فى عمل التحريات، لكشف غموض هذا الحادث، فَهِمَ منهم أنهم قاموا بعمل كل الإجراءات اللازمة، وعلم منهم أن جهدا كبيرا بذل دون جدوى، حيث إن كثيرا من المبلغ عن غيابهم، عادوا إلى ذويهم، دون أن يخطر أهلوهم أقسام أو مراكز الشرطة . المبلغين بها . بعودتهم، مما أضاع وقتا وجهدا دون عائد .... ومثل هذا الأمر، كثيرا ما يحدث، ويضعه رجال الشرطة فى حساباتهم، ويتوقعونه.

فى مساء ذات اليوم، وضع ضابط المباحث خطة للبحث والتحرى، لكشف غموض الحادث، ومعرفة شخصية المجنى عليه، وكلف بعض المخبرين للتفرغ نهائيا لمتابعة هذه القضية... شرح لهم واجباتهم، وأن عليهم عرض نتيجة عملهم يوميا، وطلب منهم إجراء مسح شامل لكافة القرى المجاورة، لمكان العثور على الجثة. وأيضا بالأحياء السكنية بالمدينة عاصمة المحافظة وعدم الاعتماد على بلاغات الغياب وحدها، وتم توزيع صور" المجنى عليه " عليهم ..

. واستطرد الضابط يشرح لمجموعة المخبرين المكلفين بهذه القضية خطة البحث، كانت خطة محكمة، لكنها تحتاج إلى جهد كبير لتنفيذها.

أولى ضابط المباحث اهتماما خاصا بهذه القضية، فالمأمور جديد، وله خبرة طويلة بأعمال المباحث، ولم يسبق له معرفة قدرات وامكانيات ضابط المباحث، ويريد الأخير إبراز جهوده، ومهارته، فكان يكثف العمل، لحل لغز هذه القضية، بسرعة التعرف على شخصية المجنى عليه. وكلما مرّ الوقت، ولم تأت التحريات بنتائج ايجابية، زاد الضابط توترا، وزاد ضغطا على المجموعة المكلفة من المخبرين بهذا الحادث، لمضاعفة جهدهم.

لم يكتف الضابط بالإشراف على هذا العمل، بل كان يشارك فى البحث بنفسه، فكان ينتهز فرصة انتهاء العمل ليلا، وسيره فى الطرقات مع أحد زملائه . لاعتيادهما مزأولة رياضة المشى . فإذا ما وجد . مثلا . فى بعض الميادين أو الشوارع، جمعا من الأطفال والصبية يلعبون كرة القدم، على أضواء المصابيح الكهربية ليلا، تحدث مع بعضهم، عارضا صورة الغلام عليهم، لعلّ أحدهم يتعرف عليه ...

لم يتعرف على الصورة أحد من الغلمان المضبوطين بمكتب الأحداث، ولم يتعرف عليها أيضا أى أحد من " مخبرى" ذلك المكتب.

كان الضابط كثير الحركة، واضعا صورة الغلام القتيل، فى حافظة نقوده، كان لا تقابله فرصة للسؤال عنه، إلا وانتهزها.

أتاه خاطر ذات يوم .. لماذا لا يكون الغلام، من الغلمان الذين "يتسطحون" على القطارات من أعلى، وقد أصيب أثناء وجوده فوق القطار

بالاصطدام ببعض القضبان الحديدية . ولم ينتبه لها . والموجودة أسفل بعض الكبارى، حيث كان العثور على الجثة قرب أحد الكبارى ... وهنا يكون الحادث قضاء وقدرا، ولا تكون جناية قتل ضد مجهول ..؟

أسرع بخاطره إلى الطبيب الشرعى . الذى تربطه به صلة طيبة . عارضا عليه تصوره هذا عن الحادث، لكن الطبيب لم يؤيد هذا التصور، وفقا لتشريح الجثة والإصابات وموضعها....

كان المأمور يتابع جهوده، فى كشف هذا الحادث، وكان يشجعه على الاستمرار فى بذل المزيد من الجهد، قائلا له :

. استمر...اتعب...ابذل الجهد...وسيكافئك الله على عملك، بكشف غموض هذا الحادث.

كان حديثه أبويا، مخلصا، فزاد الضابط من جهده، وبالتالى زاد من ضغطه على المخبرين .... وتتسع دائرة البحث.

فى مساء أحد الأيام، وعند مناقشته للمخبرين عن نتيجة العمل الذى كلفهم به....أفصح له مخبرعجوز. يتميز بالإخلاص فى عمله . أنه علم بأن إحدى النسوة، تغيب ابن لها، فى مثل سن هذا الغلام القتيل. وأنها أبلغت القسم، الذى تقيم فى دائرة اختصاصه. وتبين أن القسم لم يقم بإجراءات النشر، وأنه توجه إليها بمنزلها، وعرض عليها صورة المجنى عليه،

لكنها قررت أنه ليس ابنها، وقد طلب المخبر منها صورة لابنها الغائب، للمساعدة فى البحث عنه.

وأضاف المخبر أن أوصاف الملابس التى قررت الأم أنه كان يرتديها يوم غيابه عن المنزل، هى نفس أوصاف وألوان الملابس التى وردت بالإشارة عن الحادث.

اهتم ضابط المباحث بما أخبره به هذا المخبر، فهو صادق دائما، ولا يبالغ فى عرض أعماله، ويكتسب احترام زملائه، لذا فهم يدعونه " بالشيخ سالم " توقيرا واحتراما.

أطّلع الضابط على صورة الغائب، التى أخذها المخبر من والدته، وقارنها بصورة المجنى عليه . والتى أخذت له عقب اكتشاف الجثة . وقال سريعا :

. إنه هوّ ... كيف لا تتعرف عليه أمه ؟

استعلم الضابط . تليفونيا . من قسم الشرطة التى أبلغت به المرأة عن غياب ابنها .... وتبين أن أحد الملازمين المنوبين، هو الذى قام بتحرير المحضر، وأنه بعد إعداده لإشارة النشر . سها عليه تسليمها لعامل التليفون . وظن الضابط المنوب التالى له أنها أبلغت ... مما تسبب فى إطالة إجراءات البحث طوال هذه المدة.

لم يهتم ضابط المباحث بما أخبره زميله بالقسم بأنه سيتم التحقيق ومجازاة هذا الضابط، كان كل همه الأوصاف . التى أبلغت بها والدته لابنها الغائب وألوان ملابسه ونوعها .. وبسرعة راجع تلك الأوصاف على ما جاء ببلاغ العثور على الجثة، فوجدها مطابقة.

أسرع بإبلاغ المأمور . الذى شجعه، وقال له :

. إن الأم ترفض أن تتقبل واقعة وفاة ابنها ...

ثم قارن المأمور بين الصورتين، وكذا أوصاف الملابس، فأيّد ظنون ضابط المباحث فى أن القتيل هو ابن هذه المرأة، وطلب منه استدعاءها فى الصباح.

صباح اليوم التالى، كانت المرأة تقف أمام ضابط المباحث، وبجوارها "الشيخ سالم"، المخبر العجوز، يشد من أزرها، كانت ترتدى ملابس ريفية، رقيقة الحال.

تبين أنها أرملة، حيث توفى زوجها منذ سنوات، تاركا لها هذا الابن الوحيد، الذى تشقى لتربيته بخدمتها فى بيوت بعض الموسرين.

كانت عيناها زائغتين، وفكرها شاردا... استسمحت الضابط فى أن تجلس .. فأجلسها. بينما يحادث نفسه عن متاعب هذه المهنة، التى تجعله يقف هذه المواقف المأساوية ... إن لسانه يتلعثم، وهو يريد أن يقنع المرأة، بأن القتيل هو ابنها، وأنه يحس بشعورها. ولكن المرأة تصده قائلة :

. كيف يابك لا أتعرف على ابنى ... أنه لازال حياً وسيعود بإذن الله بالسلامة.

يحاول إقناعها مرة أخرى بأوصاف الملابس، وأنها متطابقة ... فتسأله:

. وأين ملابس ابنى ؟

يخبره "الشيخ سالم" بأنه حضر يوم تشريح الجثة، وأن اللحاد جمع تلك الملابس، ويظن أنه وضعها مع الجثة . أثناء الدفن . داخل المقبرة، لكنه غير متأكد من ذلك.

المرأة لازالت عنيدة، ولاتريد أن تعترف بوفاة ابنها، قد يكون هناك بارقة أمل، إذا تم العثور على ملابس ابنها بالمدفن.

حرر الضابط محضرا لاستئذان النيابة بفتح المقبرة، التى دفن بها بالقرية، لعرض الملابس التى كان يرتديها القتيل، للتعرف عليها.

حصل الضابط على إذن من النيابة بفتح المقبرة، وأبلغ عمدة القرية تليفونيا لانتظاره أمام مقابر القرية، ومعه شيخ الخفراء واللحاد، اصطحب الضابط معه بعض المخبرين، ومعهم المرأة. بسيارة المركز " البوكس ". متجهين إلى القرية، فلم يطق الضابط صبرا، للذهاب ثم العودة، ومعهم الملابس إن وجدوها، ثم يعرضوها على الأم.

رأى أن تحضر معهم إلى المقابر، لتعيش الأم الواقع، وتوقن بوفاة نجلها، فضلا عن كسب الوقت.

فى الطريق إلى المقابر، سرح ذهن الضابط بعيدا، وتذكر طفولته، حين كان يذهب مع أمه للمقابر، لزيارة قبر جدته فى المناسبات والأعياد، كان يحب جدته كثيرا، وتذكر كيف كانت أمه والنسوة من أقاربه، وهن يبكين... فينهمر الدمع منه غزيرا... منذ ذلك الوقت، كان لديه إحساس رهيب وكئيب، عن زيارة المقابر، هو شعوره الآن، وهو متجه للبحث عن ملابس الغلام، بالمدفن الذى دفن فيه.

تصل السيارة إلى القرية، تتجه بعدها إلى حيث توجد المقابر، وفى أرض فسيحة أمامها، توقفت، نزل منها الضابط، ومعه قوة المخبرين، بينما طلب من المرأة أن تبقى بالسيارة.

وجد الضابط . فى انتظاره . جمعا من رجال الإدارة، يتقدمهم العمدة وشيخ الخفراء ومعهم اللحاد.

تبادلوا بعض الكلمات، أكد اللحاد أن ملابس الغلام بالمقبرة، ساروا جميعا إلى هذا المدفن، بدأ اللحاد، يعاونه "الشيخ سالم" فى فتح المقبرة، لا حديث بين أحد من الحاضرين ، المكان يعمه الصمت، والشفاه تتحرك دون

صوت، يقرأون بعض الآيات القرآنية، أو يتلون الشهادة.

لايدرى الضابط، لماذا استرجع بذاكرته، الهيكل العظمى للإنسان، الذى كان موجودا بمدرسته الثانوية، والذى كثيرا ماوقف أمامه متأملا، وتخيله ذات يوم يحدثه، وكتب خواطره . هذه . بمجلة المدرسة.

الشمس فى مواجهة المقابر، أشعتها تضيء جزءا داخل المدفن من الفتحة، فيقترب الضابط أكثر، يدفعه الفضول إلى تركيز بصره إلى ما بداخل المدفن، يتمكن من مشاهدة جزء من جثة الغلام التى تقع عليها أشعة الشمس ....

. يا سبحان الله .. الديدان تنهش الجثة .. أو تحول اللحم إلى ديدان ...

يمد اللحاد يده ... يخرج ملابس " مكورّة " ... إنها ملابس الغلام.... بنطلون رمادى، وقميص كستور أخضر مخطط ... كما جاء بالإشارة، وهو ما أبلغت به المرأة أيضا .....

"الشيخ سالم" تبدو على وجهه علامات الارتياح، يقول بصوت مرتفع :

. الحمد لله ...

كان يجب تحريز هذه الملابس والاحتفاظ بها، ولكن ماحدث قد حدث. يتناول " الشيخ سالم " الملابس من اللحاد، الذى يقوم بسد فتحة القبر ثانية، ويتوجه ضابط المباحث ومعه "الشيخ سالم" ناحية السيارة، حيث توجد بها الأم، يتبعهم هذا الجمع الكبير، والفضول يسبقهم، لحظات تمر، تبرز عينا الأم من مقلتيها، تقلب بعصبية الملابس، ثم تصرخ صرخة عالية، يعقبها لطم بيديها متتال لخديها، تشق جلبابها، ..... تولول قائلة :

. يا ابنى ... يا حبيبى ...

ثم تنخرط فى البكاء.

تدمع عينا الضابط، ويخشى أن يلمحه أحد، يتظاهر بالحزم، آمرا قواته ركوب السيارة، للعودة إلى المركز ... يخشى أن تسقط دموعه ....

يسمع كلمات التهانى من بين بعض الحاضرين . من رجال الإدارة :

. مبروك يا بك !! مبروك يا بك !!

وتنطلق السيارة .... بينما يقفز فى ذهن الضابط سؤال :

. لو شاء القدر ولم يعثر على ملابس ولدها، هل كان فى مقدرته أن يقنعها بأن القتيل هوّ ولدها ؟

يشك فى ذلك.

"١٠"

تحريات

أعادت الشكوى المجهولة، التى تسلمها ضابط المباحث، ذكريات قديمة له، كاد أن ينساها.

كانت الشكوى عبارة عن استغاثة من فلاحى إحدى القرى، يشكون فيها من بطش مسئول الإصلاح الزراعى بها، ويبدون تبريرا لعدم توقيعهم على الشكوى، هو خشيتهم من إيذائه لهم، فهذا الموظف ذو نفوذ، وله صلة قوية برئيس الهيئة بالمحافظة.

كما احتوت الشكوى أيضا على العديد من المخالفات، وطالب الشاكون فى نهاية شكواهم، العمل على نقله خارج القرية.

أعادت هذه الشكوى، ذكريات له عن هذه القرية، عندما كان ضابطا صغيرا، حديث العهد بالعمل، قبل أن يعين بالمباحث، حين صدرت تعليمات الحكومة بمشاركة رجال الشرطة فى أعمال مكافحة دودة القطن، حيث استفحل أمر الدودة وقتها، مهددة الاقتصاد المصرى، الذى كان يعتمد اعتمادا كبيرا على محصول القطن، فقد فشلت المبيدات التى استوردتها الحكومة . فى ذلك العام . فى القضاء على تلك الديدان، ورؤى . درءا لهذا الخطر. ضرورة الاعتماد على المقاومة اليدوية، وطُلِبَ من الشرطة، المعاونة فى إنجاح هذا العمل،

وتم تعزيز مراكز الشرطة المشاركة فى المقاومة، بسيارات حكومية من جهات أخرى، خلال فترة المقاومة.

كان من نصيب المركز . الذى يعمل به ضابطنا هذا . سيارة "بوكس" رمادية اللون . تخص إدارة الطب البيطرى بالمحافظة . وكانت تماثل السيارة المخصصة للمركز أصلا، وأرسلت بسائقها، الذى كان عليه الحضور صباح كل يوم بالسيارة، للعمل حتى الغروب.

تذكر الضابط فرحته، حينما كلفه المأمور بالمرور وحده، على جميع زراعات القطن، الموجودة بالبلاد التابعة للمركز، مخصصا سيارة الطب البيطرى له.

وزاد من فرحته اكتشافه أن سائق هذه السيارة، خفيف الظل، وأنه لا يكلّ من العمل، فكان الضابط يمر ومعه أحد الجنود بالسيارة، للإشراف على أعمال المقاومة، ولمتابعة قيام الإدارة بالقرى، لإخراج أبناء الفلاحين، للمشاركة فى المقاومة اليدوية. فرغم أن الأطفال الصغار، كانو يحصلون على مبالغ نقدية صغيرة، لكن هناك عددا كبيرا منهم . كان يعزف عن العمل بالنقاوة اليدوية.

فبعد أن انتشرت المدارس بريف مصر، وتملك الفلاحون الأجراء عدة أفدنة لزراعتها، أصبحت تطلعاتهم هى تعليم أبنائهم بالمدارس، فهى لا تكلفهم شيئا، فابتعد هؤلاء الأبناء عن العمل بالفلاحة، ولا سيما أن الفلاحين اعتمدوا اعتمادا كاملا على المبيدات فى القضاء على الدودة.

وتذكر الضابط، ذلك المنظر الذى ألفه فى مروره، منظر "خولى الانفار" ممسكا بعصاه فى يده، وأمامه طابور منتظم من البنين والبنات الصغار، وهم يحنون ظهورهم للأرض، فور ظهور سيارة الضابط، لم تكن أبصارهم تتجه للبحث عن الدودة، بل يرتكز انتباههم للسيارة التى عرفوها، ويظلون على هذا الحال إلى أن تنصرف السيارة بعيدا عنهم، مختفية عن الأنظار.

كما تذكر أيضا كيف كان السائق يثرثر كثيرا، طوال المرور بالسيارة، وقد آنس الضابط له، وتباسط معه، ليشجعه على سرد المزيد، إذ كانت حكاياته مسلية، وكان السائق بدوره، لا يحجب عنه سرا.

تذكر الضابط كذلك، الحديث الذى دار عند مرورهما ذات يوم، على تلك القرية التى وردت منها هذه الشكوى، حيث تحدث السائق تلقائيا عن الممتلكات الكثيرة التى تمت مصادرتها فى هذه القرية، وعن القصر الفسيح . الذى كان مملوكا لأحد أمراء الأسرة المالكة . والذى يقيم فيه حاليا، المشرف وأسرته.

وأضاف السائق بأن هذا المشرف هو المسئول عن إدارة كل هذه الممتلكات، وأنه يدعى الأستاذ عباس.

وينفلت لسان السائق . ضاحكا . وهو يقول :

. الأستاذ عباس كريم ... كريم جدا ... ولكن ليس من جيبه.

ثم يقهقه ويكمل حديثه عن القرية :

. الخيرات كثيرة بها ... يوجد بقر ... وجاموس ... وخراف ... ودواب كثيرة ... وعسل نحل ... وفاكهة .... والدكتور البيطرى يحضر هنا مرة كل فترة، لمتابعة صحة المواشى ... وعمل محضر بنفوق عجل أو جاموسة أو بقرة ... حسب الظروف والمناسبة ... ثم يوقع مع اللجنة على المحضر، وآخذ أنا نصيبى من البهيمة النافقة.

ويتعجب الضابط ـ وقتها ـ لسماعه هذا الحديث، ويسأل السائق مستفسراً :

. أتأكل لحم مواشى نافقة ؟

. نافقة ؟ ... المواشى التى تذبح يا بك ... تكون أحسن المواشى ... والدكتور هو الذى يختارها بنفسه... لكنه يحرر عنها محضرا فقط بنفوقها.

. ألا يخشى أحد من اكتشاف الأمر ؟

. كيف ؟ وكل المسئولين عن المواشى، ومن يشرفون عليها، يوقعون بنفوقها فى المحضر والدفتر ... واعتماد الدكتور البيطرى ... فكيف تكتشف ؟ ... حتى أنا السائق الذى ليس له توقيع، يتم مراضاتى بأخذ نصيب من اللحم، وأقوم بتوصيل بعض الأنصبة للرؤساء بمنازلهم فى البندر ... هدية من الأستاذ عباس.

يعقّب الضابط على هذا الحديث بقوله :

. أعتقد أن "عباس" هذا قلبه من حديد.

. طبعا ... لأنه متصل بكل المسئولين ... حتى المدير العام الذى أقوم بتوصيل هدايا الأستاذ عباس له أحيانا، وفى كل مرة أقوم بتوصيل اللحم له، لا يقتصر الأمر على توصيل اللحم فقط، بل يكون بجانبه خيرات كثيرة من الفاكهة والخضار.

ويهز الضابط رأسه وهو يقول :

. طبعا " شىء لزوم الشىء " كما كان " نجيب الريحانى " يردد ذلك .

يسود الصمت برهة، ثم يعاود السائق حديثه قائلا :

. هذه الخيرات الكثيرة، كانت ملك الأسرة المالكة، وتمت مصادرتها، وأصبحت ملك الشعب.

ثم ينظر إلى الضابط مكملا حديثه، وهو يبتسم متسائلا :

. إننا أصبحنا يا بك مالكين لهذه الأشياء ... ألسنا من الشعب ؟

وتمضى . بعد ذلك . الأيام متتالية، ويعين الضابط رئيسا لمباحث المركز.... ويكاد ينسى . لزحمة العمل . تلك الأحاديث، التى كانت ذات يوم بينه وبين سائق سيارة الطب البيطرى، عن تلك القرية، وأحاديثه الأخرى، ولكن فور ورود تلك الشكوى فقد استرجع الضابط كل الأحاديث عن تلك القرية، وعن هذا "العبّاس".

لم تتضمن الشكوى الكثير من المخالفات الجديدة، إنما فى مجملها أكدت الأحاديث التى سبق أن سمعها من السائق عن المشرف. ورأى الضابط أن "عباس" هذا قد وقع فى قبضة يده، وأنه لابد وأن يعزّز التحريات بأقوال شهود من القرية ذاتها ...... فكلف أحد رجاله من المخبرين السريين، والذى يثق فيه وفى قدراته، بعمل التحريات اللازمة، وأن يحاول معرفة أحد من مرسليها، وطمأنته، لسؤاله فى محضر عن تلك الوقائع التى بها. فالتحريات وحدها ليست كافية لإقامة الدليل ضد المشكو فى حقه، خاصة أنه على علاقة طيبة برؤسائه، وحساباته ودفاتره يجيد تسويتها.

أبدى المخبر تفهمه للمأمورية، وأفاد بأنه فى استطاعته تنفيذها بسهولة، فهذه القرية تقع فى منطقة اختصاصه، وله صلة طيبه بالكثير من سكانها.

استغرق التحرى عن الشكوى، والبحث عن شخص يمكن أن يشهد ويؤيد الوقائع التى وردت بها، ثلاثة أيام، عاد بعدها المخبر عارضا نتيجة تحرياته . التى أيدت كل ما جاء بالشكوى، لكن المخبر لم يتمكن من معرفة مرسليها، رغم إجماع من سألهم سرا، على صحة ما جاء بالشكوى، كما فشل المخبر بالتالى، فى إقناع أى من المواطنين، الذين أيدوا ماجاء بالشكوى بالتقدم لإثبات أقواله علنا فى محضر.

نظر الضابط إلى المخبر، ثم تحدث إليه متسائلا :

. ألا يوجد بالقرية أحد لديه الشجاعة، ليدلى بأقواله، رغم مايفعله فيهم هذا المشرف، ورغم ما يشكون منه ؟

ويشرح المخبر للضابط الأسباب التى تحول دون إمكان تنفيذ ذلك بقوله :

. إنهم يا بك بالقرية جميعا أصحاب مصلحة، وجميعهم منتفعون من وضعهم هذا ...

ثم يكمل حديثه، بينما الضابط يصغى إليه :

. فمن بين سكان القرية .. منتفعون بأراضى الإصلاح الزراعى .. فمنهم من تملّك الأرض الزراعية، وهم لا يعملون بالفلاحة إطلاقا، منهم الترزى العربى، ومنهم الجزار، ومنهم حلاّق القرية ... فهم لا يشتغلون بالزراعة نهائيا، ولاتنطبق عليهم شروط استحقاق تملكهم للأرض الزراعية، التى تم توزيعها عليهم، لهذا فهم يرضون بالإتاوات التى تفرض عليهم، لعلمهم بأن فى الإمكان إلغاء ملكيتهم لها. والمشرف وأعوانه يعلمون بمهن هؤلاء قبل التوزيع، ولكن لا بأس من ذلك، فمثل هؤلاء يكون ابتزازهم أسهل وأضمن، فهم لن يفتحوا أفواههم بشكوى، وإلا عوقبوا باسترداد الأرض منهم.

ويستمع الضابط باهتمام إلى المخبر، الذى استطرد يكمل حديثه :

. حتى الفلاح المعدم، والذى مهنته الزراعة، لا يخلو الأمر من فرض إتاوات عليه، ومع ذلك يظل صامتا.

. كيف ؟ ولماذا ؟

. كثير منهم يتسلمون الفدادين المعطاة لهم ... جزء منها فى ناحية، والجزء الآخر فى ناحية أخرى، غير متجاورين، ويعيش الفلاح منهم على أمل أن يرضى عليه المشرف بتوحيد أرضه، لتصبح قطعة واحدة، ومثل هذه الحالات كثيرة، والوعود بإصلاح ذلك الخلل فى التوزيع، كثيرة أيضا ...

ثم تمر الأيام، ولا يستطيع هذا الفلاح أن يشكو وإلا ضاع أمله فى توحيد أرضه.

ويستمر المخبر فى حديثه، موضحا استحالة إمكان مجاهرة فلاح بالشكوى ضد المشرف لتعارض ذلك مع مصلحته.

يأسف الضابط لعدم استطاعة المخبر تعزيز التحريات بأقوال أحد من فلاحى هذه القرية لتؤيد صحة ماجاء بالشكوى ... ويعقب الضابط على المخبر بقوله له :

. إن الصورة ليست قاتمة لهذه الدرجة ... فهناك الكثير من الشرفاء فى مختلف المواقع.

ينصرف المخبر. محييا. بينما أمسك الضابط قلما رصاصا، وبدأ فى إعداد مسودة تقرير، للرد على تلك الشكوى، التى لم يكتف الضابط فيها بمعلوماته السابقة أو بتحريات هذا المخبر، بل استعان هو شخصيا ببعض مرشديه الجميع أيد صحة ماجاء بالشكوى، من مخالفات، ضد المشرف.

أثناء كتابة التقرير، سرح ذهن الضابط، فى أن رئاسة هذا المشرف سوف تسانده، ليبقى فى هذا الموقع، فهو يعلم صلته القوية برؤسائه ...

وبينما هو على هذا الحال، يكتب كلمة ثم يشطبها .. ويقدم جملة على أخرى.. إذا برنين جرس التليفون بمكتبه يقطع حبل أفكاره .. فيتوقف عن الكتابة .. يرد على الطالب .. كانت مفاجأة له، إن المتحدث هو مدير عام تلك الهيئة بالمحافظة .. الرئيس الكبير لهذا المشرف . إنه يتحدث إليه لأول مرة ...

يحدثه . راجيا . عدم تصديق ما جاء بالشكوى ضد الأستاذ عباس.. فهو من أنشط الرجال الذين يعملون بالهيئة .. وأخذ يمدحه كثيرا..

حيث علم منه الضابط، أن بعض فلاحى القرية أخبروا المشرف بأن أحد مخبرى المركز حضر للقرية، للتحرى عنه، بناء على شكوى مجهولة، وأنهم نصحوه بمكالمة رئيس الهيئة، ليحادث ضابط المباحث لتوضيح الأمر.

سرح ذهن الضابط، متذكرا أقوال المخبر، من أنهم . جميعا . منتفعون وأصحاب مصلحة، وأن هناك من الفلاحين من يبتغى مرضاة المشرف، ليقضى له مصلحته، فأفشى تحرى المخبر عنه.

انتهت المكالمة .. يضع الضابط السماعة على التليفون .. يعود لإمساك القلم الرصاص ليكمل التقرير.. يعيد قراءة ما كتبه .. تقابله عبارة:

" أسفرت التحريات عن صحة ما جاء بالشكوى ".

يفكر لحظات ... يشطب كلمة " أسفرت " ... يدق بالقلم على المكتب دقات متتالية ...... يضع كلمة " أكدت " بدلا من الكلمة التى شطبها، لتصبح العبارة :

" أكدت التحريات صحة ما جاء بالشكوى ".

ويسترسل فى كتابة التقرير بينما يحدث نفسه ساخرا :

" هذا هو قدر المشرف، بأن تقع الشكوى ضده فى يدى، فأنا أعلم عن سلوكه الشىء الكثير، وهو الأمر الذى لا تغيره مثل هذه المكالمة التليفونية".

"١١"

عندما بكت الجاموسة ...

. ما هذا الشتاء اللعين ؟ لم تتدهور صحتى من قبل، كما حدث فى شتاء هذا العام.

هكذا حدث ضابط المباحث نفسه، وقد ازداد عطسا، وسعالا، فلم تفلح الأدوية الخاصة بالتهاب الحلق، ونزلات البرد، ولا أكواب عصير الليمون الساخن، الذى تناوله عدة مرات بدلا من الشاى، لعلاج نزلة البرد هذه.

كل من قابله، وعرف بحالته هذه، نصحه بالراحة، حيث إن الإجهاد يبدو عليه بصورة ظاهرة. حتى هو يرغب فى الراحة أيضا، ولكن كيف؟

فأكوام التقارير المراد فحصها تنتظره ... وتلك الحوادث الهامة، المطلوب متابعتها منه شخصيا، مع أعوانه من المخبرين، لتوجيههم وإرشادهم ... كيف يؤجلها ؟.

عليه . اليوم . المرور بالسيارة ليلا، لتفقد حالة الأمن، وملاحظة وجود خفراء "الأسلاك التليفونية" بمواقعهم. فقد تعددت سرقة "الأسلاك التليفونية" النحاس، وتقرر على أثرها قيام مرور ودوريات مكثفة، لمنع هذه الحوادث.

يعتزم الضابط . بعد أن يقوم بمروره هذا . أن يعرج فى طريقه على الوحدة الصحية، فيها طبيب تربطه وإياه صلة طيبة، وسبق له أن عالجه من البرد، بإعطائه حقنة ثلاثية التركيب بالوريد، كانت تعجل بشفائه.

ألقى الضابط بجسده المتعب، على المقعد الأمامى للسيارة "البوكس" بجوار السائق ولف رقبته بالكوفية الصوفية، لعلها تقيه البرد وتقلل من التهاب الحلق.

انطلق السائق بالسيارة فى محازاة أعمدة الخطوط التليفونية، لمتابعة وجود الخفراء المعينين، لحراسة الأسلاك التى بها.

كان السائق يوقف السيارة عند كل خفير يجده، بينما يفتح الضابط زجاج السيارة ليحادث الخفير، فيدخل الهواء البارد منه إلى داخلها.

يكتشف الضابط أن عملية غلق الزجاج وفتحه على فترات، هى التى تسبب إصابته بنزلات البرد، فيحكم لف الكوفية حول رقبته ... بينما تمضى السيارة فى مرورها.

يحدث الضابط نفسه عن هؤلاء اللصوص، مرتكبى حوادث سرقات الأسلاك النحاسية، فرغم أن معظم خطوط التليفونات النحاس قد استبدل معظمها بأسلاك من الألمنيوم لكن السرقات لم تتوقف، فاللصوص لديهم القدرة على تمييز الأسلاك النحاس من الألمنيوم فى الظلام، ويقومون بسرقة النحاس منها بسرعة.

يتعجب الضابط على مخاطراتهم هذه، ويتمنى أن تصادفه فى مروره هذا إحدى العصابات ليضبطها.

انتهى مروره على خفراء الأسلاك، ووجدهم جميعا بمواقعهم منتظمين، وفى طريقه للعودة تقف السيارة أمام الوحدة الصحية، يقابل

طبيبها القاهرى، شاب ظريف لا يكف عن الدعابة، ومنذ أن تعرف به صارت بينهما ألفة ومودة.

قام الطبيب بالكشف عليه .. نصحه على أثرها بالراحة التامة، فنزلات البرد المتكررة مع عمله المتواصل، أجهدته كثيرا.. وقد .. وقد أعطاه الحقنة التى تعجل بالشفاء . كطلب الضابط وانصرف بعدها شاكرا.

بمنزله ... يعد الضابط سريره، استعدادا للنوم .. يتوجه بعدها لإطفاء النور .... ولكنه ينظر إلى التليفون عدة لحظات ... إنه يخشى رنينه ليلا ... هذا الرنين الذى يعنى وقوع حادث، قد يستلزم انتقاله الفورى.

إذن فليحدث الرقيب "حسن" .. إنه عامل التليفون المنوب الليلة بالمركز ... إن "حسن" هذا، معروف عنه اليقظة فى نوبته طوال الليل، وله دراية تامة بعمله، والكل يعلم أنه يتصرف ليلا، كأنه المأمور، خاصة فى بعض الأمور البسيطة التى لا يرغب فى إزعاج المأمور أو ضابط المباحث بها، وفى الصباح يخطرهما بتصرفه، الذى يتبين أنه سليم غالبا.

يكلم الضابط عامل التليفون ... يطلب منه متابعة مشايخ خفراء المركز، وضرورة وجودهم بالدركات، فهو يتمنى أن يستريح، وأن ينام هذه الليلة دون أن يوقظه رنين التليفون.

يجيبه الرقيب "حسن" قائلا :

. ألف لا بأس عليك يا سعادة البك ... الليلة فعلا تلزم لك الراحة ... وسأتكلم مع مشايخ الخفراء بحجة البحث عن سيادتك ... وأطلب منهم فور أن يجدوك أن يبلغوك بضرورة الاتصال بى لأمر مهم ،

وسأخبرهم أن سيادتك فى المرور على بعض بلاد المركز، ولكن لا أعرف أى البلاد ... سأتصل بهم طول الليل حتى الصبح وسأجعلهم يقظين.

. شكرا يا "حسن" ... أنا عارف همتك.

ويضع الضابط سماعة التليفون..يطفىء النور.. ويلقى بجسده المتعب على السرير ملتفا بالبطاطين..ثم يغط فى نوم عميق.

لكن فى الخامسة والنصف صباحا، رنين جرس التليفون يوقظه من نومه ... انه الرقيب "حسن" ... يبلغه بوقوع حادث سرقة جاموسة، تم ارتكاب الحادث عن طريق نقب جدار الحظيرة الملحقة بمنزل أحد المزارعين، بقرية مجاورة " لكردون " المدينة ......

يوضح الرقيب "حسن" له أنه كان طوال الليل يحادث مشايخ الخفراء والخفراء ببلادهم، كى يظلوا مستيقظين، ومنهم شيخ خفراء هذه القرية التى وقع بها الحادث .....

يقاطعه ضابط المباحث . باستياء . مستفسرا منه عن كيفية وقوع الحادث إذن، لو كان شيخ الخفراء والخفراء بتلك القرية مستيقظين ؟

يجيبه الرقيب "حسن" بأن منزل المجنى عليه فى الخلاء وسط المزارع، وليس فى حراسة أحد الخفراء.

ثم يحيطه علما بأن السيارة فى الطريق إليه، وبها المخبرون المنوبون، ومع أحدهم إخطار الحادث، ومبين به اسم المجنى عليه وأوصاف الجاموسة.

يطلب الضابط . بعدها . من الرقيب "حسن" سرعة إبلاغ مشايخ الخفراء بالقرى المجاورة . لمكان وقوع الحادث . للخروج ومعهم الخفراء بأسلحتهم، إلى الطرق لعمل أكمنة، لعلهم يضبطون اللصوص، والجاموسة المسروقة.

كان للحادث أثره على الضابط، فقد أنساه إصابته بنزلة البرد، وأنساه أيضا توصية الطبيب له بالالتزام بالراحة، فهذه الحوادث تهتم بها الوزارة، وتوجب الإخطار بها.

بسرعة فائقة كان الضابط يقف بمنزل المجنى عليه، يعاين الحادث، ومعه بعض المخبرين ورجال الإدارة بالقرية.

يلاحظ أن السرقة تمت عن طريق إحداث نقب بجدار الحظيرة، ويجده نقبا صغيرا نسبيا شبه مستدير، من النوع الذى يحدثه بعض المحترفين من لصوص المواشى، ويتمكنون من إخراج الجاموسة منه بطريقة معينة.

وقد أصبح للضابط خبرة فى معرفة أى العصابات محدثة النقب، من شكل النقب وحجمه، وهل هم من الفلاحين أم من الغجر، الذين يسكنون قريبا من المنطقة.

بدا الحزن شديدا على أسرة المجنى عليه، وكأن عائلهم الوحيد، قد توفى هذه اللحظة، وكان رب الأسرة أكثرهم حزنا ويحاول منع دموعه من السقوط.

يستكمل الضابط معاينته، بالكشف عن خط سير اللصوص، واتجاههم، يسير وراء "الجرّة"، إن خطواتهم وآثار أقدام الجاموسة تتجه غربا، فى عكس الاتجاه للمدينة.

يعلق أحد المخبرين على ذلك بقوله :

. لا يوجد غيره يا أفندم ... مادامت " الجرّة " تتجه للغرب، فذيل الكلب عمره ما ينعدل أبدا.

يستفسر منه الضابط عمن يقصد، فيجيبه قائلا :

. عبد السلام .. عبد السلام العربى، فهو يسكن فى القرية المجاورة غربا.

وتنتهى المعاينة، وقبل أن ينصرف الضابط ومن معه، لاينسى أن يوبخ شيخ الخفراء والخفراء المحيطين به، لإهمالهم الذى تسبب فى وقوع الحادث.

يقسم شيخ الخفراء بأنه والخفراء كانوا بدركاتهم طوال الليل، حيث كانوا يتوقعون قدومه ليخبروه بضرورة الاتصال بالمركز، ويستشهد شيخ الخفراء على صدق أقواله بالرقيب "حسن".

يأمر الضابط قواته بركوب السيارة .. يدعو صاحب الجاموسة المسروقة للتوجه معهم بالسيارة أيضا، لعمل المحضر اللازم ... طالبا من السائق الاتجاه أولا للقرية التالية غربا، حيث يقيم المدعو "عبد السلام العربى".

أثناء سير السيارة، يسرح الضابط متذكرا حكايته مع هذا العبد السلام ، حيث ألحقه بعمل شريف طرف أحد المقاولين . بعد خروجه من السجن . وقد أوصى المقاول بحسن معاملته، ونسيان ماضيه لوجود سابقة السرقة، فقد استشعر الضابط أن توبة عبد السلام كانت خالصة.

تذكر عبد السلام وهو يبكى أمامه فى مكتبه، بعد أن اعترف بارتكاب الحوادث التى شارك فيها مع العصابة التى تقيم بالمحافظة المجاورة، والتى

ترتكب حوادثها فى هذا المركز .. حيث أخبر الضابط أن زوجته قد خانته مع زعيم العصابة .. وأنه طلقها .. وعلم بعدها بأنها تزوجت منه، وأن ابنه معها حاليا . حيث تقيم . ويرجو أن يساعده الضابط فى أن يكون ابنه معه ...

وأصبح بعد خروجه من السجن يتردد على ضابط المباحث للإرشاد على بقية المتهمين، الذين لم يتم ضبطهم، ومنهم زعيم العصابة نفسه، بقصد الانتقام منه.

ويسأل الضابط نفسه :

. أيكون عبد السلام قد شارك فى ارتكاب هذا الحادث ؟ ويله لو كان ذلك حقيقة.

تتوقف السيارة .. ينزل منها الضابط ومرافقوه .. يرشده أحد المخبرين إلى حيث يقيم عبدالسلام .. يجدونه بالمنزل.. تبدو عليه آثار النوم، أو لعله يتظاهر بذلك .. يتلقى دفعات من التوبيخ الشديد من الضابط، ومن معه، يتصاعد التوبيخ ويصبح تهديدا .. يلومه أحدهم بعدم صيانته للجميل الذى أسداه له ضابط المباحث بإلحاقه بعمل شريف يتكسب منه عيشه ...

يدافع عبد السلام عن نفسه بقوله أنه مظلوم .. وأنه تاب ....

يحثه أحد المخبرين ليذكر أية معلومات قد تفيد فى الكشف عن الحادث، بقوله له :

لو أنه حقا مظلوم، فعليه الإرشاد عن مرتكبى هذا الحادث، والذى يقع بالقرية المجاورة له.

يستفسرعبد السلام عن بعض الأمور المتعلقة بالمعاينة .. وعن اتجاه "جرّة " البهيمة يخبرونه بأنها اتجهت ناحية الغرب...

يستفسر ثانية .. عما اذا كانت " الجرّة " قد توقفت عند الطريق الاسفلتى ... أم أمكن متابعتها بعد ذلك ناحية الغرب.

أجيب بأنها اختفت بالطريق الاسفلتى، ولم يتمكنوا من متابعتها ....

هنا يصيح عبد السلام قائلا:

. إنها نفس العصابة ... يريدون أن ينتقموا منى، لعلمهم بإرشادى عنهم ... إنهم يموهون بالاتجاه غربا، وعندما يصلون إلى الطريق الأسفلتى . حيث لا تظهر أية آثار على الأرض . يعودون إلى ناحية الشرق ... إلى المدينة ... إن اليوم .. يوم سوق الماشية وهو الموعد الذى تفضله العصابة . لعدم اشتباه الشرطة فيهم وهم يسحبون الماشية . حيث يتركونها بمنزل يتردد عليه أحد الجزارين لذبحها ... وهو يعمل بمجزر المدينة، وأيضا بأحد محلات الجزارة الكبرى بها.

يطلب عبد السلام سرعة التوجه إلى هذا المكان، خشية ذبح الجاموسة، بينما يحذره أحد المخبرين من التضليل.

ينظر المجنى عليه إلى عبد السلام، ويقول له . مستعطفا إياه . بصوت خافت :

. وحياة والدك تساعدنا...الجاموسة كانت عندى فى معزة أولادى.

يسأل الضابط عبد السلام عن سبب عدم ذكر موضوع هذا الجزار فى اعترافاته السابقة .... يجيبه بأن ذلك كان سهوا منه.

بسرعة .. يستقل الجميع السيارة " البوكس " متجهين إلى المدينة .. تقف السيارة قبل الوصول إلى المكان الذى يعتقد أن الجاموسة به، حيث

يتركها مرتكبو الحادث، ويتقاضون ثمنها بعد ذلك من الجزار.

يترجل الجميع .. يسيرون متفرقين .. يتقدمهم عبدالسلام ... وعيون المخبرين تلاحقه.. يتوجهون إلى المكان .. إنه مبنى من المسلح من طابق واحد ... أرضيته من البلاط النظيف.

لم يصدق الضابط أن يكون بداخل هذا المنزل، الجاموسة المسروقة، فلا توجد به حظيرة للمواشى .. لكنه وجد جاموسة بداخل حجرة فسيحة معدة كحمام ...

نظر الضابط إلى الجاموسة، وجدها ساكنة ... تفحصها لمعرفة ما إذا كانت أوصاف الجاموسة المبلغ بسرقتها تنطبق عليها أم لا.

بينما كانت الجاموسة تنظر إلى الضابط بعينيها المتسعتين ببلاده وعدم اهتمام.

نادى الضابط على المجنى عليه، ليشاهد الجاموسة ...

يدخل بخطوات خائفة :

. إنها هىّ يا بك ....

صاح الرجل ... وهو يهجم على الجاموسة يعانقها ...

ما هذا الذى يراه الضابط ؟

الجاموسة تهتز .. وكأنها ترقص فرحا .. أصوات أقدامها تحدث دويا على البلاط ... الرجل لازال يعانقها ... إنها تبدو كطفل تائه وجد أمه ...

يلتف المخبرون حول الضابط، يشاهدون هذا المنظر، الذى لم يتوقعوه، يقبلها الرجل .. بينما الجاموسة تمسح رأسها بملابسه .. دموع تتساقط من عينى الرجل .. يصيح مخبر من الواقفين لزملائه :

. انظروا ... الجاموسة تبكى.

حقيقة إنها تبكى ... تبكى فرحا كصاحبها ... عيناها تسيل منهما دموع غزيرة.

كان هذا الحادث، بداية لإظهار جهد كبير للضابط .. فقد تم ضبط الجزار .. والذى تبين أن لديه بموقعه هذا . الذى تم ضبط الجاموسة المسروقة به . أختاما مسروقة أيضا من المجزر الذى يعمل به، ليختم بها الذبائح المسروقة أو المريضة أو التى لا يراد ذبحها بالمجزر ثم يعرض ذبائحه بمحل الجزارة الكبير الذى يعمل به دون أية شبهة.

وكان لهذا الحادث نهاية لتلك العصابة، التى أقلقت الأمن بالنسبة لسرقات المواشى ..

مرت أيام عديدة، على هذا الحادث، ولم يعلق بذاكرة الضابط شىء عنه كما علقت رؤيته للجاموسة، وهى تبكى فرحا، عند لقائها بصاحبها.

لكن الضابط كف عن سرد ماشاهده عن تلك الواقعة للأصدقاء ومعارفه، فقد لاحظ فى نظرتهم شيئا من عدم التصديق، وهم يستمعون إليه، فضلا عن ابتسامة خبيثة كانت تعلو شفاههم، إذا ما أقسم لهم بأن مارواه كان حقيقة.

كان يسأل نفسه كلما تذكر هذا الحادث هل كان فى إمكانه الوصول لكشف غموضه وضبط الجاموسة و اللصوص لو أن القدر عانده ، فلم يجد

صباح يوم الحادث " عبد السلام العربى " موجودا بمنزله؟!

"١٢"

الحذر لا يمنع قدراً

جرس التليفون يرن بمكتبه ... المتحدث هو طبيب الوحدة الصحية .. صديقه .... يسعد ضابط المباحث بمكالمته هذه، يتبادلان التحية، والاطمئنان عن أحوالهما الشخصية.

يخبره الطبيب بأنه وجد أنيسا جديدا له بالقرية، بدلا من المشرف الزراعى السابق، الذى كان يؤنسه فى وحدته بها أحيانا ... ولكنه أدخل السجن لاختلاسه أموال الجمعية الزراعية، فقد تم تعيين مشرف زراعى جديد للجمعية.

يتذكر الضابط الحادث الذى ادعى المشرف . ذات صباح . فيه أنه وجد خزينة الجمعية مفتوحة هى وباب الجمعية ....

ادعى بسرقة المبلغ الذى كان بعهدته، من الخزنة الحديد .... وتبين بعدها كذب ادعائه، حيث أثبت ذلك تقرير المعمل الجنائى، بأن قرر بأن الخزينة فُتحت بمفتاحها الأصلى الموجود مع المشرف.

كما تذكر الضابط كيف أنه لم يهدأ له بال، حتى استكمل محضر تحرياته، وساعده فى ذلك زملاء المشرف، الذين شهدوا ضده، وقرروا أنه كان مقبلا على الزواج، وليست لديه الأموال الكافية، وقد أودع المشرف السجن ...

يسترسل الطبيب فى محادثته التليفونية، عن المشرف الجديد، وعن نزاهته التى يتحدث عنها أهل القرية، حتى أنهم أصبحوا لا ينادونه إلا بـ" الحاج أحمد

"، تعظيما وتوقيرا رغم صغر سنه .... وعن نشاطه فى عمله واهتمامه به، حتى أنه يبدأ عمله فى السابعة صباحا ..... وتجده يتوجه للحقول، لمتابعة أعمال المقاومة اليدوية للقطن ... أو التأكد من رش المبيدات وفقا للأصول ....

ويتحاكى الأهالى، كيف أن أحد المفتشين بمديرية الزراعة، كان يقوم بالمرور المفاجىء على الزراعات، فوجد المشرف بالحقل يباشر عمله بجدية، فأثنى عليه، وكتب ذلك بالدفتر الموجود بالجمعية، وأثبت عبارة " إنه يتمنى أن يؤدى المشرفون عملهم بمثل هذه الهمة والنشاط ".

يضيف الطبيب أنه فى كثير من الأمسيات، يلتقى بالمشرف بالوحدة الصحية، حيث يتذكران معاً، القاهرة بمباهجها وسهراتها، كما يحكى المشرف فى كثير من أحاديثه له، عن فترة وجوده ضابطا بالاحتياط بحرب اليمن، وكيف أنه أصيب بشظية فى ساقه، وكاد يشرف على الهلاك، لولا عناية الله.

يطلب ضابط المباحث من الطبيب، التوقف عن الحديث قائلا :

- كفى .. كفى حديثا عن هذا المشرف ... ألا توجد موضوعات أخرى نتكلم فيها ؟

- توجد ... و لكنى أطلبك اليوم من أجل هذا المشرف ؟

- لم ؟

- الشيخ عبد العال .. أعتقد إنك تعرفه .. وتعرف انه يمتلك أطيانا كثيرة .. دعا المشرف لزيارته . فى أحد الأيام . ببيته .. شاهد ابنته .. تلميذة بالثانوى .. أعجب بها .. لم يتردد بعدها، وطلب يدها من والدها .. أمهله الشيخ عبد العال لحين أن تنتهى من الامتحانات ..

ولكن فى حقيقة الأمر، كان للسؤال عنه .. سألنى عنه، لأننى أجلس كثيرا معه فى المساء ... أجبته بما علمته عنه ... لكنه أخبرنى اليوم أنه توجه لمديرية الزراعة للسؤال عنه... فأخبره من سأله بالمديرية.. بأنه لاتوجد بيانات بالمديرية عنه ....

رجانى الشيخ عبد العال، بأن أحدثك بشأنه للاطمئنان، ومعرفة وضعه، ولكن دون أن يشعر هو بذلك.

. وكيف يا دكتور ؟

. لو تفضلت مشكورا وزرتنى غدا، بعد صلاة الجمعة، فستجده معى بالوحدة الصحية .... دائما نلتقى بعد الصلاة ... ويمكن بأسلوبك، وبحديثك معه معرفة الحقيقة.

. أمره غريب ... ولكن كيف التحق بعمله بالجمعية ؟

. حضر ومعه خطاب من " القوات المسلحة " يفيد بأن :

" يعين مشرفا زراعيا بالجمعية، حيث إنه من مصابى حرب اليمن وأن الأوراق والمستندات سترسل لمديرية الزراعة بالبريد " ....

ولكنها لم تصل بعد.

. أحيانا ... ما يحدث مثل هذا ... سأزورك بعد صلاة الجمعة بإذن الله.

. سلام ... وإلى اللقاء.

. سلام.

بفناء الوحدة الصحية، وخلف منضدة صغيرة، وضع عليها زجاجتان فارغتان من المياه الغازية ... وبعض جرائد الصباح، جلس الطبيب والمشرف الزراعى يتحدثان فى أمور شتى. يصل ضابط المباحث ... يرحب به الطبيب ... يقدمه للمشرف الزراعى ... يتبادل الجميع كلمات التحية والمجاملة ...

أحس الضابط أنه يعرف هذا المشرف من قبل ... لكنه لا يتذكر أين ومتى.

يهم المشرف بالانصراف مبديا أنه تذكر شيئا هاما يجب عليه عمله الآن .... لكن فى هذه اللحظة، يحضر الشيخ عبدالعال إلى مجلسهم هذا... يطلب من المشرف الجلوس، وهو يداعبه قائلا :

. أقعد يا حاج أحمد ... أم إذا حلّت الشياطين ... ذهبت الملائكة ؟

يجلس المشرف ثانية ...

أثناء ذلك تحدث الطبيب عن همة ونشاط " الحاج أحمد " فى العمل .. ثم تلقف الحديث الشيخ عبد العال قائلا :

. لم يسبق أن عمل أحد بالجمعية الزراعية فى مثل نزاهته وهمته ...

يختلس الضابط أثناء الحديث النظر إلى " الحاج أحمد " .. محاولا تذكره ... انه متأكد من سابق معرفته به من قبل ...

فجأة ... وجدوا الضابط يصيح موجها حديثه " للحاج أحمد" ، قائلا :

. قف ... يا نصاب ... يا خسيس.

كان ذلك مفاجأة للطبيب والشيخ عبد العال ..... بينما أظهر "الحاج أحمد" عدم التأثر.... واستفسر بهدوء من الضابط قائلا :

. سيادتك موجّه الكلام لىّ أنا ؟

. نعم... لك... يا سيد يا غنّام ؟ هنا يقف "الحاج أحمد"... وعلى شفتيه ابتسامة صفراء ... يوجهها للضابط وهو يقول :.

. مادمت تذكرت اسمى، وكاملا ... فلا فائدة من الإنكار .....

يحدّث الضابط، الشيخ عبد العال والطبيب، ويعرفهم بأن "الحاج أحمد" ما هو إلا "سيد الغنّام" .. النصاب المعروف... إنه يباشر معظم نشاطه فى " القاهرة " وكان مسجونا على ذمة قضية أخيرة ارتكبها بالمركز.

وبرر الضابط عدم تعرفه عليه لأول وهلة، لانه قام بحلق شاربه الكثيف، الذى يتميز به ... يقتاده أحد المخبرين للسيارة "البوكس" ... وتنطلق إلى المركز...

يعترف " الحاج أحمد " أو " سيد الغنّام " تفصيلا ..

كان محبوسا فى زنزانة واحدة، مع المشرف الزراعى السابق للجمعية ... وأن المشرف هو الذى حرضه على ذلك لرغبته فى الانتقام من زملائه بالجمعية، لأنهم شهدوا ضده ... أحاطه بكل أمور الجمعية ... والتعليمات اللازمة بشأن التعامل مع المزارعين، وكذا مرؤوسيه ... علمه كل شىء عن الدفاتر الموجودة بالجمعية، وكيفية مباشرة عمله ...

يستفسر منه الضابط عن السبب فى عدم سرقة الأموال الموجودة بالخزنة والهروب بها حتى الآن وهى كثيرة ؟.

أجابه :

. الطمع .. لأن بعد أيام كانت ستمتلىء الخزانة بالنقود .. وهناك سبب آخر، وهو أنه أحب ابنة الشيخ عبدالعال فعلا لجمالها .. وكان يود البقاء بجوارها مدة أطول ... كانت سعادته كبيرة حين يراها أثناء ذهابها أو إيابها للمدرسة.

ثم يضحك ... وهو يعترف بتزويره الخطاب الموجه من "القوات المسلحة" لتعيينه ... وأنه لم يسبق له المشاركة فى حرب اليمن أو السفر إليها ... ولكن كان يستمع إلى قصصها من بعض معارفه الذين شاركوا فعلا فى حربها.

يسأله الضابط :

. وإصابتك من الشظية ؟

أجابه :

. إنها حدثت نتيجة مشاجرة.

أخيرا ... يسأله الضابط :

. ولماذا حلقت شاربك، رغم أنك غير معروف بالمرة، فى هذه القرية ؟

أجابه بسرعة :

. سيادتك السبب .. والخوف من أن ترانى مصادفة ... فالمشرف السابق أوصانى بذلك قائلا بأنك على صلة قوية بالطبيب، وتزوره أحيانا.

يوقع على اعترافاته بالمحضر .... بينما الضابط يقول له :

. يا حاج أحمد ... الحذر لا يمنع قدراً !!.

"١٣"

مراقبة ثنائية

ذات صباح، تم إعلان رئيس مباحث المركز، بما ورد بإشارة تليفونية، بشأن ترشيحه لحضور فرقة فى أعمال البحث الجنائى، ستعقد بمعهد تدريب ضابط الشرطة بالقاهرة، فى الموعد الذى حدد له بالإخطار.

ورد بهذا الإخطار تنبيه للدارسين المقرر حضورهم هذه الفرقة، بضرورة الحضور ومعهم ملابسهم الرياضية الخاصة بهم، وأنه يلزم حضورهم الفرقة بالملابس الرسمية. شرد ذهن الضابط لحظة... فهناك مشكلة ... فالملابس الرسمية الخاصة به، قد ضاقت عليه الآن ... لكنها مشكلة يسيرة، ويستطيع معالجتها.

أعاد الضابط تلاوة الإخطار ... ثم ردد بينه وبين نفسه :

إن هذه الفرقة تأخرت كثيرا بالنسبة له، فهو الآن . كما يعتقد . غير محتاج لها ... فقد مارس العمل فعليا على أعمال البحث الجنائى ... بل وأجاده.

ثم تساءل : هل ستفيده هذه الفرقة حقا ؟!.

على كل الأحوال، لا ضرر من ذلك، فهو سيقضى عدة شهور بالقاهرة، وسيجدد صلات قديمة له . كانت انقطعت . ببعض الأصدقاء بها، وسوف ينعم ببعض من مباهجها التى افتقدها فى مكان عمله بالريف.

بالأحضان والسلامات الحارة ... كانت لقاءات الضباط فى يومهم الأول للدراسة بالفرقة.

فكثير منهم لم يكن قد التقى بزملائه منذ تخرجهم، وتوزيعهم على مديريات الأمن والمصالح المختلفة كان محور سؤالهم، الذى يدور فى لقاءاتهم الأولى هذه، عن أحوالهم الاجتماعية ... فمنهم من تزوج، ومنهم من ينتظر.

كانت الضحكات تغلف أحاديثهم، وعادت أجواء الدراسة والتلمذة بينهم، فمعظمهم من دفعة واحدة، وقضوا بالكلية سنوات طويلة معا.

كانوا جميعا خلال تلك اللقاءات ينظرون لمبنى كلية الشرطة القديم، المجاور لمبنى المعهد الجديد، الذى يتدربون به، نظرة كلها حنين إلى تلك السنوات التى عاشوها بين جدرانه ... لكن هذا الحنين كان ممتزجا برهبة فى داخلهم، لذكريات عن صرامة النظام العسكرى الذى عاشوه.

كان طابور الرياضة الصباحى، هو متعتهم فى الدراسة، وكان محلا لتعليقاتهم وتندرهم حين يكتشفون أنهم فقدوا لياقتهم البدنية، ولم يعودوا مثلما كانوا طلبة، فلم يستطع الكثير منهم استكمال الجرى حول ملعب كرة القدم، إلا مرة واحدة، ولعل الكثير منهم . وقتها . تذكر كيف كانوا يلفون هذا الملعب عدة مرات، دون تعب يذكر، وهم طلبة بالكلية.

ولعل البعض الآخر لعن تدخين السجائر، التى جعلته يكمل لفة واحدة بالكاد حول الملعب ثم يستلقى على ظهره سريعا على نجيل الملعب متعبا.

إلا أنه ومع مرور الوقت استعاد الجميع لياقتهم الرياضية، وأصبح طابور الرياضة متعة ومحبباً لهم، خاصة عندما يلعبون كرة القدم.

كم كانوا فى احتياج لمثل هذه الطوابير الرياضية، لاستعادة لياقتهم، خاصة لمن عمل منهم بالأرياف، وذلك لعدم وجود الأندية الرياضية المناسبة لهم.

لم يكن لدى الضابط قناعة . أول الأمر . بأنهم سيستفيدون من المواد المقررة بتلك الفرقة ... فالمواد التى درسوها بالكلية تكفى لتهيئتهم ضباطا للمباحث، لكن لم يمض وقت طويل عليهم إلا وقد شعروا جميعا بتلك الاستفادة، بل وشعروا بمتعة أخرى عند الاستماع للمحاضرات التى يلقيها بعض أساتذة الجامعات، وأحيانا بعض الوزراء فى شتى فروع التخصص والمعرفة الممزوجة بخبراتهم الشخصية فى الموضوعات الهامة.

كان يمتعهم أكثر، تلك اللقاءات، التى يلتقون فيها ببعض القيادات الشرطية فى أعمال البحث الجنائى، حين يروون لهم، أشهر الحوادث والقضايا التى قاموا بضبطها، وكيف توصلوا لمعرفة مرتكبيها، والاستماع لتحذيرات تلك القيادات من واقع خبرتهم بضرورة الاحتياط لسد كافة الثغرات القانونية، التى يمكن أن ينفذ منها المحامون، من خلال أذونات التفتيش ... وإجراءات الضبط أو التحقيق ... فيفلت منها المتهمون.

كان منهج الفرقة دسما، فالمقررات كثيرة ومتنوعة، ومنها العملى ومنها النظرى لكن محور الفرقة كان يدور حول الجديد فى طرق مكافحة الجريمة فى شتى المجالات .. المخدرات ... الآداب ... السرقات ... ومطاردة العصابات بالجبال وبالمدن ... والمراقبات والرماية ... إلخ ... كانت المواد العملية أقرب إلى ميول الضابط.

كانت مادة المراقبة، من أكثر المواد إثارة، والتى اهتم بها الضابط خاصة أنهم سيمتحنون فيها عمليا.

تناول محاضر تلك المادة شرح كل شىء عن المراقبات .. مراقبة الأفراد.. مراقبة السيارات .. المراقبة بواسطة شخص واحد .. أو بواسطة

شخصين أو أكثر ...

بينّ لهم المحاضر ميزة المراقبة الثنائية أو الثلاثية، وذلك لعدم استطاعة الشخص المراقب، أن يكشف بسهولة عما إذا كان مراقب من عدمه، حيث أبرز لهم المحاضر بأن من أهم صفات نجاح عملية المراقبة، هى عدم شعور الشخص المراقب بأنه مراقب.

كما حذر المحاضر الدارسين من عدم الوقوع فى الخدع، التى ربما يجريها المراقب للكشف عما اذا كان أحد يراقبه أم لا، وعدد لهم أمثلة كثيرة لتلك الحيل.

مع نهاية تلك المحاضرات، كان الامتحان العملى لضباط الفرقة ... كان موضوعه "المراقبة الثنائية"، وهو يتلخص فى تقديم بيانات موجزة عن شخص ما، بوصف ملابسه والعلامات المميزة به،

يحدد الزمان والمكان الذى سيوجد به هذا الشخص، وعلى الضابطين اللذين سيشتركان معاً فى المراقبة الثنائية، مراقبته ومتابعته وإثبات تحركاته وأماكنها وتوقيتاتها. وكذا عليهما معرفة شخصه وسكنه ... ذلك كله دون أن يشعر بهما، وأن على الشخص المراقب . و هو غالبا ما يكون أحد المخبرين السريين . تقديم ملاحظاته عن عملية المراقبة، وما إذا كان قد كشف مراقبة الضابطين

له أو أحدهما... ومتى ؟ وأين كان ذلك ؟

زامل ضابطنا هذا فى الامتحان، أحد الضباط من أصدقائه الدارسين بالفرقة، كان الامتحان المقدم لهما يتلخص فى أن شخصا يرتدى سروالاً أزرق وقميصا رماديا، ويوجد بذراعه الأيسر آثار حرق ... سيكون موجودا فى حوالى العاشرة من صباح يوم الامتحان، بمقهى بمنتصف شارع "رمسيس"، ذكر اسمه لهما، وتوضح لهما بأن المراقبة سوف تنتهى فور توجه الشخص المراقب إلى مسكنه .... وعليهما تقديم تقرير بكل تحركاته وتوقيتاتها.

قبيل الموعد المحدد . يوم الامتحان . توجه الضابطان إلى المقهى، تبين أن له مدخلين أحدهما يطل على شارع "رمسيس"، والآخر يطل على شارع متقاطع معه.

اقتسم الضابطان عملية المراقبة بينهما، ضابطنا هذا الذى نقص عنه حكايته، سيراقب مدخل المقهى من شارع "رمسيس"، وذلك من داخل محل لبيع المرطبات والسجائر، والذى يقع فى مواجهة المقهى، وقد نفذ ذلك فعلاً بأن أعلن شخصيته ومهمته لصاحب المحل، وهو يشترى إحدى الزجاجات المثلجة، واستأذنه الجلوس بالداخل، بينما زميله سيراقب المدخل الآخر للمقهى، وقوفا بمحطة الأتوبيس المواجهة لهذا المدخل ...

إتفقا . قبل ذلك سويا . على معانى بعض الإشارات بينهما بالأيدى.

لم تمض دقائق، إلا ويقترب من المقهى، شخص يرتدى سروالاً أزرق وقميصا رماديا، نفس المواصفات ، ويدخل المقهى من الباب المطل على

شارع "رمسيس"، يمكث ثوان، ثم يخرج منه عائدا فى الاتجاه الذى قدم منه، يلاحظه الضابط الجالس بداخل المحل، يسرع بإعطاء إشارة بيده لزميله، ليسرع بالسير معه خلف هذا الشخص، فقد بدأت عملية المراقبة.

كانت المفاجأة أن زميله يرفض، بإشارة بإصبع يده بحركة تفيد معنى الرفض .. لم يفهم، ولم يعرف . ضابطنا هذا . سببا لرفض زميله .....

إن الشخص ذو السروال الأزرق والقميص الرمادى، يسرع فى السير ... يسير خلفه ضابط المباحث مسرعاً هو أيضا، تاركا المحل، آخذا فى التلفت خلفه، لعل زميله الضابط الآخر يكون قد عدل عن رفضه، ولحق به، لكنه لا يجده وراءه، يلعن فى سره حظه السىء، الذى أوقعه بتلك الزمالة ... فهو لايجد سببا لرفض زميله، وعليه إذن أن يراقب الشخص بمفرده، هذا قدره، وليكن ما يكون بالامتحان.

كان الضابط حذرا فى مراقبته، تتبع الرجل فى كل مكان سار فيه، وحين توقف أمام " فاترينة " عرض لمحل ملابس، ليشاهد المعروضات التى بداخلها، كانت فرصة الضابط كبيرة فى مشاهدة آثار الحرق فى ذراعه الأيسر، انه بالتأكيد هو الشخص المطلوب مراقبته ... لم يقف الرجل طويلا .... ولعل أثمان الملابس المرتفعة، صرفته سريعا عن التطلع إليها.

توقف الرجل بإحدى محطات الأتوبيس، بعد أن سار مسافة غير قصيرة، يحمد الله الضابط بأن هناك أناسا كثيرين بالمحطة، ليقف بوسطهم، ينتهز الضابط الفرصة، لحين حضور الأتوبيس، فيدون ـ خلسة ـ فى

مفكرة صغيرة، موعد حضور هذا الشخص إلى المقهى، وانصرافه منه ... ثم خط سيره ... إلى أن وقف بمحطة الأتوبيس. يتوقف عن الكتابة، سوف يكتب رقم الأتوبيس الذى سيركبه الرجل فى وقت لاحق... انه سيسجل كل التحركات له بتوقيتاتها أولا بأول ...

يصل الأتوبيس ... يحترس الضابط، فلا يركب إلا بعد تأكده من أن الرجل قد انحشر داخله فالضابط يخشى أن يجرى الرجل عملية كشف، لمعرفة إن كان هناك من يراقبه، كأن يصعد إلى الأتوبيس فعلا، ثم ينزل منه عند بدء تحركه، فيعرف إن كان هناك من يتتبعه، إن نزل منه فجأة شخص كان قد صعد إليه فى هذه المحطة ... لكن هذا لم يحدث. صعد الضابط للأتوبيس، ووقف بجوار بابه، وعيناه على من يراقبه.

سار الأتوبيس ما يقرب من الخمس محطات، بعدها نزل منه الرجل متوجها إلى مبنى أحد السنترالات .. قدم إلى المختص بالشكاوى، شكوى كتابية ... انصرف بعدها سائرا فى الطريق.

توقف الرجل دقائق أمام محل لبيع عصير القصب ... تناول كوبا كبيرا مثلجا من العصير ... ليطفىء به ظمأه، فاليوم شديد الحرارة، أخذ الرجل يتفرس فى وجوه المارة، إذن فهو قد بدأ عملية الكشف لمعرفة ما إذا كان أحد يراقبه أم لا .. لكن ..

هيهات، فالضابط كان أكثر حرصا، فهو يراقبه من بعيد ... ولقد انتهز فرصة وقوف الرجل أمام محل عصير القصب، ليعاود تدوين تحركاته فى مفكرته، كما أثبت توقيتاتها بالدقيقة، إمعانا فى إظهار دقته فى تقرير الامتحان الذى سيقدمه عن نتيجة المراقبة.

تحرك الرجل بعدها إلى عدة جهات مختلفة، سائرا تارة ... راكبا تارة أخرى، بينما الضابط يتبعه كظله، محترسا منه كى لايراه.

لقد اشتد الحر ... وتصبب العرق من الضابط أثناء ملاحقته له، يود لو تناول كوبا من الماء المثلج ... أو زجاجة مياه غازية ... لكنه لا يستطيع خشية ألا يتمكن من ملاحقة الرجل.

يسير. الآن . هذا الشخص بحى شعبى ... بشوارع ضيقة... الآن هو بحارة أكثر ضيقا، يحادثه بعض الأطفال مرحبين به ...

هدأت نفسية الضابط، فهذا يعنى أن الرجل يسكن هذه الحارة، يهم بدخول أحد المساكن بها، يناديه الضابط، ليتحدث معه ... فقد رفع الحرج، حيث انتهت المراقبة، وانتهى الامتحان معها، خاصة أن الضابط يعلم يقينا بأن هذا الشخص ما هو إلا شرطى سرى ... يتبادلان التحية ... لكن فى نظرات الرجل كانت علامات الاستفهام تتزاحم .. يسأله الضابط مبتسما :

. هيه ... ما رأيك فى المراقبة ؟

. مراقبة ؟ .. مراقبة ؟ .. ماذا تقصد ؟

. نعم ؟ ... ألا زلت تعيش فى الدور ؟ ... لقد انتهت المراقبة.

. أنا لا أفهم شيئاً على الإطلاق.

. نعم ؟ ... ألست مخبرا ؟

. مخبر ؟ .. أنا عامل فى مطبعة .. وراحتى الأسبوعية اليوم.

يفاجأ الضابط بذلك، يخرج بطاقته العسكرية، ويطلع العامل عليها، ويطلب منه إبراز بطاقته الشخصية، للتأكد مما يقرره، يجيبه العامل إلى طلبه طائعا، والحيرة تبدو على وجهه، يطلع عليها الضابط، فيجد أنه عامل بمطبعة فعلا، يعيدها له بعد أن يكون قد حفظ فى ذاكرته اسمه ومحل إقامته وعمله ليدونها بعد ذلك فى المفكرة.

علامات الدهشة تعلو وجه الضابط أيضا، وهو يسأل العامل عن سبب توجهه إلى المقهى بشارع رمسيس، يجيبه العامل فى براءة، بأن صاحب المطبعة طلب منه أن يحضر له فى الصباح بالمقهى، حيث سلمه شكوى عن عطل تليفون لأحد أقاربه طالت مدة تعطله، رغم الإبلاغ عنه تليفونيا، وقد قام هو بدوره بتسليم الشكوى للسنترال المختص ...

حينئذ يبتسم الضابط ابتسامه صفراء إلى العامل قائلا له :

. لا تؤاخذنى ... حصل خير.

ويعود الضابط سائراً على قدميه فى هذا الجو الحار، وهو يسأل نفسه :

. هل كان ذلك الشخص هو المراد بمراقبته فعلا ؟

إن أوصاف ملابسه هى .. هى، وعلامة الحرق بذراعه الأيسر هى .. هى .. يجهد فكره وهو سائر .. انه يعلم بأن مثل هذا الامتحان فى الأعوام السابقة، كان جميع الأشخاص الذين تمت مراقبتهم، كانوا من المخبرين.

ويسأل الضابط نفسه :

. ألا يجوز أن يكون الممتحن . هذا العام . قد جعل الأشخاص المراد مراقبتهم من المدنيين العاديين ؟ ... ربما.

. ألا يصح أن يتم اختيار هؤلاء المراقبين دون أن يدروا؟.... ربما.

. ألا يجوز أن يكون طلب صاحب المطبعة لهذا العامل للحضور للمقهى فى هذا الموعد لتسليمه الشكوى، هو نتيجة لاتفاق مسبق بين صاحب المطبعة والممتحن؟ ربما أيضا.

يهز الضابط رأسه، وهو يفكر فى هذا الأمر، ثم يقرر بأن ما توصل إليه فكره، ليس محل شك .. فهو يجزم بأن هذا الشخص، هو فعلا المقصود بالمراقبة فى الامتحان.

تصادفه سيارة أجرة يستوقفها ... يلقى بجسده بها ... يريد التوجه مسرعا، ليتناول الطعام، وليأخذ حماما يرطب به جسمه، وعليه أن يذهب بعدها مسرعاً، إلى حيث الموعد المحدد سلفا، فى الخامسة مساء، بالمقهى الشهير بميدان التحرير. فسوف يلتقى بزميله الضابط، حيث كانا قد اتفقا على ذلك من قبل، خشية أن يفترقا عن بعضهما، أثناء عملية المراقبة.

بالمقهى الشهير . فى ذلك الوقت . بميدان التحرير، وفى الموعد المحدد، يدخل ضابط المباحث، يتفحص وجوه الجالسين، بحثا عن زميله، يناديه زميله، فيتجه إليه معاتبا إياه، لرفضه اللحاق به أثناء عملية المراقبة، يستفسر منه عن سبب رفضه.

يضحك زميله بسخرية، وهو يستفسر منه أيضا عن سبب تسرعه وتركه وحيدا بالمحطة، أثناء مراقبته للشخص المراد تتبعه، والذى كان يجلس داخل المقهى.

ظل الاثنان يتعاتبان، وكل منهما يعتقد أن الشخص الذى راقبه الضابط الآخر، ليس هو المقصود بالمراقبة، فقد أخبره زميله، أنه فور أن

توجه إلى محطة الأتوبيس المواجهة لباب المقهى بالشارع الفرعى، شاهد الشخص المراد مراقبته بملابسه السابق وصفها، يجلس بجوارالباب، ثم شاهد بعدها، علامة حرق على ذراعه الأيسر، فتأكد أنه الشخص المراد مراقبته، وقد تتبعه فى كل تحركاته إلى أن انتهت المراقبة بدخوله مسكنه،

وعلم بعدها عن اسمه من صاحب محل بقالة مجاور لمسكنه، وكذا عمله، وتبين أنه شرطى سرى بمباحث القاهرة.

يتحاور الزميلان مندهشين، عن المصادفة الغريبة، التى تجمع بين اثنين، يرتديان نفس أوصاف الملابس، وبكل منهما آثار حرق بذراعه الأيسر، ويوجدان فى زمان ومكان واحد، مصادفة.

يحاول الضابطان، وهما جالسان بركن بالمقهى، كتابة مسودة تقرير مشترك عن المراقبة لكنهما يختلفان :

فمن المقصود بالمراقبة ؟

هل هو عامل المطبعة ؟ .... ربما.

أم هو الشرطى السرى ؟ .... ربما.

أم كلاهما معاً ؟ وقصد الممتحن من ذلك، اختبار قدراتهما، وتعليمهما توخّى الحرص والدقة فى العمل، أثناء المراقبة، وحتى لا يظلم أحد نتيجة لصدفة التشابه هذه ؟ .... ربما أيضا.

يرجئان الكتابة.. يسرعان.. حيث موعدهما مع الممتحن، وأيضا سيلتقيان بالشخص موضع المراقبة .....

وهناك .... عرفوا الحقيقة !.

إن القدر تدخل بأن أوجد عامل المطبعة بالمقهى، فى ذلك الوقت، ومرتديا نفس أوصاف الملابس وفى يده نفس العلامة المميزة .... أى مجرد صدفة فقط ... كى يتعلم منها الضابطان الشىء الكثير.

"١٤"

و... طار العريس

. ألديك أقوال أخرى ؟

_ لا.

تمت أقواله ووقع.

هذه أول قضية اختلاس يتولى تحقيقها، ومع ذلك فقد حصل على اعتراف تفصيلى، وبسرعة فائقة من المتهم، لكنه يشعر بإحساس غريب تجاهه ... إنه إحساس يكاد يقترب من الشفقة عليه، ولا يدرى هل مبعثه نظرات المتهم نحوه، والمعبرة عن الحزن والندم ؟ أم مظهره الذى يوحى بالطيبة ؟ أم ... ؟ أم ... ؟

ويتوقف الضابط عن هذه التأملات وينادى بحزم :

. ياعسكرى.. خذ المتهم وتحفظ عليه، لحين عرضه على النيابة.

ينظر المتهم نحوه نظرة استعطاف ويقول :

. أرجوك يا حضرة الضابط أن تخبر ابنتى كى تحضر، وأقابلها، أريد أن أطمئنها بنفسى، وهى الآن بعملها القريب من المركز... إنها تكاد تموت لو علمت بالخبر قبل أن أقابلها وأطمئنها... أريد أن أخفف عنها من وقع الصدمة عليها، إنها وحيدة ومخطوبة، وتستعد للزفاف قريبا... أرجوك.

يوافق الضابط، طالباً منه رقم تليفون عملها، يحدثها .. ويخبرها بأن والدها بخير، لكنه موجود بالمركز، لأخذ بعض المعلومات منه، ويريد مقابلتها.

يسمح الضابط للمتهم أن يحدثها، فيطلب والدها منها ألا تزعج أحدا من الأقارب، وألا تتحدث مع أحد بهذا الخصوص .. ويطلب حضورها .. يشكره المتهم عقب المكالمة، ويأخذه العسكرى إلى خارج الحجرة، بينما ينبه الضابط بعدم اتصاله بأحد، وأن تدخل ابنة المتهم إلى مكتبه فور حضورها.

يعيد الضابط الاطلاع على المحضر ... يجد أنه لم يترك موضعا لسؤال إلا وسأله، بينما صورة أستاذ القانون الجنائى بالكلية تظهر له على صفحات المحضر .. وهو يشرح للطلبة منبها إلى الفرق بين جريمة الاختلاس وبين بعض الجرائم الأخرى المشابهة، يطمئن الضابط إلى سلامة المحضر، وينهمك فى اتخاذ الإجراءات اللازمة بعد ذلك، من قيد المحضر بالدفتر الخاص بذلك، وإعداد إخطار للجهات المعنية بالواقعة، وعرضه على المأمور للتأشير عليه، لإرساله للنيابة ومعه المتهم.

وما كاد ينتهى من تلك الإجراءات... إلا ويعلم بأن ابنة المتهم بالخارج ومعها خطيبها ... فيدعوهما للدخول ...

هى فتاة شقراء فى الخامسة والعشرين من عمرها... جميلة، وهو فارع الطول، قمحى اللون، ملابسه متناسقة، وبأيديهما دبلتا الخطوبة، يعرّفه خطيبها بنفسه ويخبره بأنه أسرع معها للحضور فور علمه منها، حيث أنهما زميلان فى العمل، وأنها خشيت الذهاب إلى المركز بمفردها.

يدعوهما الضابط للجلوس، فيجلسان فى قلق وترقب، تطلب منه الابنة فى شغف رؤية والدها، يطلب من العسكرى الموجود بخارج الحجرة إحضار والدها من الحجز ... تسمع الابنة كلمة الحجز ... فتغضب وتثور، وتوجه لوما حادا للضابط قائلة :

. كيف تضعونه فى الحجز ؟ وبأى سبب ؟

لم يعجبه طريقة كلامها الاستفزازية ... رد عليها بهدوء :

. لأنه متهم ... متهم فى قضية اختلاس.

. ظلم ... قضية ملفقة ... والدى رجل شريف ... وطوال عمره يعلمنا الشرف والاستقامة ... وسمعته طيبة فى العمل، وفى كل مكان .. إنه رجل نزيه وأمين ... وسينال عقابه كل من تسبب فى موقفه هذا.

. نعم إن سمعته السابقة فى العمل طيبة ... ورؤساؤه أكدوا ذلك ... لكنه اعترف ولم يحاول الإنكار.

. اعترف ؟ ... غير معقول.

وتصمت الابنة ... وتنظر إلى عينّى خطيبها . وقد كست وجهها حمرة الخجل. محاولة النفاذ إلى ما بداخله بعد سماعه هذا الحديث عن والدها، ويطرق خطيبها الرأس ... وينظر إلى الأرض ولا يتكلم ... ويسود الحجرة الصمت ... يقطعه فتح باب الحجرة، ويدخل المتهم صحبة العسكرى ... ويبدو أنه فوجىء بوجود خطيب ابنته معها ... جرت إليه تقبله ... أخذ الأب يردد لها كلمات لشد أزرها وطمأنتها ...

ثم انصرف حزينا عائدا مع العسكرى يجر أقدامه جرا ... بينما تعده ابنته بأنها ستسرع إلى أحد المحامين لحضور التحقيق معه بالنيابة.

مضى ما يقرب من ثلاثة أعوام على تلك الواقعة، ولا زال الضابط فى موقعه هذا وذات مساء وهو بمكتبه، يخبرونه بأن فتاة بالخارج تطلب مقابلته ...

دعاها إلى الدخول، فتذكره بنفسها ... كانت ابنة المتهم ...

ترجوه سرعة إخلاء سبيل والدها، حيث أفرج عنه ظهر اليوم من السجن بعد قضاء العقوبة ... وأنه قد أنهى الإجراءات المطلوبة، ولم يتبق من ذلك إلا العرض عليه لإخلاء سبيله ..... وتأمل الفتاة أن يتم الآن، فلا داعى للانتظار إلى صباح الغد.

ينظر إليها الضابط ... يتذكرها جيدا ... ويلاحظ أن مسحة الجمال التى كانت تتمتع بها، خفّت وتوارت خلف قناع من الحزن ... ويتذكر الضابط شريط أحداث هذه القضية ... فهى القضية الأولى له من قضايا الاختلاس، والتى حصل فيها على اعتراف سريع ...

يطلب إحضار المتهم وأوراقه إلى مكتبه ... ينظر إليه الضابط، فيجد أن سنوات السجن قد تركت بصماتها على وجهه ... يتحدث إليه، طالبا منه أن يلجأ إليه إذا ما احتاج إلى أى عون بعد خروجه ... ويخبره مشجعا على السير فى الطريق المستقيم بأن جميع زملائه فى عمله أشادوا بحسن أخلاقه ... لذا فقد سأله الضابط متعجبا عن الدافع الذى دعاه إلى الاختلاس، حيث يتذكر بأنه رفض الإجابة عن ذلك فى التحقيق، مكتفيا باعترافه السهل والصريح بارتكاب جريمة الاختلاس ......

فقال المتهم ببساطة :

. كانت ابنتى هذه ... هى كل شىء فى حياتى ... وكان خطيبها ممتازا... وكانت تحبه... بينما أهله يضغطون علينا لسرعة إعداد جهاز العروسة .. فالخطيب قد أعد شقة الزوجية، والمبلغ الذى كنت قد أعددته لذلك أصبح هزيلا جدا، أمام ارتفاع الأسعار الجنونى للأشياء، وبعد إنفاق جزء كبير منه لعلاج أمها قبل وفاتها ... وعجزت عن تدبير المبلغ .. فقررت أن أضحى .. وتم ما حدث، واشتريت الجهاز لابنتى لأسعدها، فقد خشيت أن يطير العريس الذى تحبه ابنتى.

وتقف الكلمات .. ويكاد المتهم يبكى .. يحاول الضابط أن يخفف عنه من وقع هذا الحديث المؤلم ... فابتسم لابنة المتهم، وهو يؤشر على الأوراق بإخلاء سبيله، وسألها مداعبا :

. ولماذا لم يحضر معك العريس هذه المرة ؟

ترد الابنة، وعلى شفتيها ابتسامة مريرة، قائلة :

. قدرى .. فقد طار العريس فور علمه بالحكم بسجن أبى !...

وأمسكت بذراع والدها وانصرفا.

"١٥"

... نهاية الرحلة

مرت الأيام والشهور ... ثم السنوات متعاقبة، أصبح ضابط المباحث أكثر كفاءة، وأكثر خبرة، صقلته التجارب، إضافة إلى ماتزود به من معرفة بفرقة البحث الجنائى التى حصل عليها، فظهرت مهاراته وحرفيته فى العمل، ساعد على ذلك، بقاؤه فى مركز الشرطة ذاته، طوال هذه المدة، فعرف الكثير من الأهالى وعرفوه، وعرف مشكلاتهم وحلولها، عرف جميع المجرمين به، وتعامل معهم، بمايناسبهم، فخشوه.

أصبح له من المرشدين والأعوان الكثيرون .... ساعدوه فى كشف ماغمض من الحوادث، بسرعة وسهولة، أصبحت البلاغات الكيدية، والبلاغات التى تجعل من " الحبة قبة "، أى من المخالفة جناية، لاتهزه، فهو يعرف كيف يتعامل معها، ويئدها فى مهدها .

أصبح العمل بالنسبة له .. هو عشقه .. هو متعته الوحيدة، فكان كل همه أن يجيده ويحسنه، ويسعده أن يجد ترتيب مركزه فى أعمال البحث الجنائى فى المقدمة بالنسبة للمراكز الأخرى بالمحافظة.

كان يسعده أيضا أن يستمع إلى اسمه يردده بعض الأطفال بالقرى، وهم يصيحون به فرحين، أثناء مشاهدتهم له، وهو جالس بسيارة المركز " البوكس " أثناء مروره بتلك القرى، فقد أصبح اسمه معروفا، يتردد على ألسنة الأهالى .. حتى الصغار منهم.

لكنها سنة الحياة، فكل ماله بداية له نهاية، أيضا، ففى أحد أيام الصيف الحارة، قرب نهاية شهر يوليو، أثناء توجه الضابط إلى ديوان مركزه فى الفترة المسائية، مصطحبا زميله عادل أحد رؤساء النقط بالمركز، شاهدا ضباط المركز مجتمعين بحديقته، هربا من حر المكاتب الشديد، ويصغون باهتمام إلى "راديو" صغير، وضعوه على منضدة أمامهم، وما أن شاهد هؤلاء الضباط الجالسون، ضابط المباحث وزميله قادمين، حتى تصايحوا يخبرونهما بنقلهما إلى إحدى مديريات الأمن بصعيد مصر ... فقد كانوا يستمعون إلى حركة تنقلات ضباط الشرطة، والتى كانت تذاع وقتها من "الراديو"، ثم تعاد عدة مرات متعاقبة.

لم تكن مفاجأة للضابط أو زميله، فهما كانا يتوقعان النقل، هذا العام ... وإلى الصعيد ... فقد انقضت مدة عملهما بالوجه البحرى، وحان موعد خدمتهما بالوجه القبلى، والنقل هو أحد متاعب المهنة للعاملين بجهاز الشرطة من الضباط.

سرح ضابط المباحث لحظة فى المحافظة التى نقل إليها ... إن أقدامه لم تطأ أرضها من قبل ... ولا يعرف عنها الكثير ... سيبدأ إذن رحلة أخرى مع الأقدار ... بالنسبة للحركة الداخلية بالمديرية، حين يتم توزيعه على أحد المراكز بها، أو قد يعين بعاصمة المحافظة ... وكلا الأمرين ليس له الخيار فى أى منهما.

أيام قليلة هى التى يسمح فيها للضابط للاستعداد بتنفيذ النقل، يكون من بينها إنجازه للأعمال المتأخرة، من الأوراق الهامة والمستعجلة، وهكذا فعل ضابطنا.

مع استعداده للنقل، كانت مشاعره الفياضة ... فهذه البلدة، التى قضى بها السنوات الخمس الأولى، من عمله، ولم يكن يعرف عنها إلا اسمها، والقليل عنها .... أصبح يحبها، ويتعلق بها، وكأنها كانت مسقط رأسه...أو كأنه عاش فيها طوال عمره.. أحب ناسها جميعا، لم يشأ أن ينام ليلته هذه، بعد أن عرف بقرار النقل، إلا بعد أن سار ليلا فى شوارعها، وحيدا، يتذكر... وكلها كانت ذكريات جميلة..... كم كان يود أن يحتضن مبانيها... ينظر إلى محلاتها، شوارعها، ناسها، بائعيها .. يودع البلدة، يريد أن تطبع صورتها فى مخيلته، فلا تمحوها الأيام.

لم يصدق أن الأيام مرت هكذا سريعا .... خمس سنوات ..

يستوقفه أحد السائرين فى الطريق .. يسرع نحوه ويصافحه بشدة، ثم يقبله قائلا :

. خسارة إن سيادتك تنقل من بلدنا.

لم يتعرف عليه الضابط، ذكرّه الآخر بنفسه، وهو يدعو له بطول العمر ..... يتذكره الضابط، حيث كان قد أسدى له جميلا بسيطا باكتفائه بنصحه عن سلوك خاطىء، كان يمكن للضابط أن يعاقبه عليه.

فى اليوم التالى ... يتقابل مع أحد جيرانه بالسكن، لم تزد علاقته به عن تبادل التحية فقط ... يدعوه الجار لمنزله للزيارة، مبديا له استعداده، لتقديم أية خدمات، يمكن أن يقدمها له بمناسبة نقله، مع كلمات الثناء عليه .

يعتذر الضابط عن تلبية دعوته، شاكرا، بحجة ضيق الوقت ....

يحدث الضابط نفسه، قائلا :

. إنهم ناس طيبون ...

كانت هذه المشاعر الطيبة بينه وبين بعض جيرانه، ومعارفه، لها الوقع الحسن فى نفسه .. كما كانت هى نفس مشاعر زملائه، والعاملين معه من أعوانه، بعد صدور قرار النقل ... كانت نظرتهم نحوه، وأحاديثهم معه، كلها تعبر عن تقديرهم وإعجابهم به، وإحساسهم بالخسارة لنقله.

الوقت يمر بسرعة .. فلا تكفيه ساعات النهار، لإنجاز أعماله، ولا لإنجاز طلباته الخاصة، استعدادا للنقل، فضلا عن توديع أصدقائه، وزيارات بعض الأهالى، ورجال الإدارة له، بمكتبه، ليودعوه.

يزوره بمكتبه الضابط الجديد، الذى سيتسلم منه مكانه، لم تكن زيارته لاستلام العمل بصفة رسمية، بل أراد مقابلته، للتزود منه بالمعلومات قبل تنفيذ النقل....... يخلص له ضابطنا، ويعطيه كل ماعنده من معلومات، عن أعوانه من المخبرين، ورجال الإدارة، ومشايخ الخفراء، الذين يمكن أن يعتمد عليهم، ثم يعطيه دفترا خاصا به، كان يدون به تحرياته الخاصة ...... شكره زميله كثيرا، وانصرف.

ويُعلن الضابط، بما جاء، بإشارة تليفونية من المديرية التى نقل إليها، بأنه عُيّن رئيسا لمباحث أحد المراكز الهامة بها، والموجودة شرق النيل.

يُدعى إلى حفل مديرية الأمن، الذى يقام لكل الضباط المنقولين منها، ذلك العام، كما يحتفل المأمور وضباط المركز بنقله، ويقدمون له هدايا تذكارية.

يخفى ضابطنا موعد سفره عن أصدقائه، فهو لا يحب لحظات الوداع، يخشاها، فكم هى ثقيلة على نفسه، يخافها، ويتأثر بها بدرجة كبيرة.

كلف الضابط أحد المخبرين، الذين يثق فيه كثيرا، ليحجز له تذكرة بالقطار، ليسافر إلى القاهرة فى ظهر اليوم التالى، تمهيدا للسفر إلى الصعيد، أوصاه بألا يعلم أحد بموعد سفره ... استحلفه بالله ... ويعده المخبر بذلك.

صباح يوم السفر، تم نقل أثاث منزله إلى محطة السكة الحديد، لنقله إلى المحافظة التى نقل إليها، عن طريق قطار البضائع، أصبحت الشقة خالية الآن، لم يتبق بها إلا حقائب ملابسه، وعدة التليفون، الذى لم ينقطع رنينه، من أصدقائه، يطلبون منه معرفة موعد سفره، ليودعوه بالمحطة ... يخبرهم بأنه لم يتحدد بعد، هربا وخشية من لحظات الوداع، التى يخافها. يكلف المخبر المرافق له باستلام عدة التليفون، وتسليمها للمختص.

قبيل موعد السفر، يطلب من المخبر إحضار عربة حنطور ... دقائق والحقائب تسبق الضابط إلى العربة، ومعه ذات المخبر، حيث يتجهان إلى المحطة .....

هل هى مصادفة أن يودعه صوت "أم كلثوم" . بأغنيتها التى يسمعها . منبعثا من بعض المحلات، أثناء سير العربة، وهى تشدو "سنين ومرت.. زى الثوانى.. " .. يعلق على أغنيتها . فى سره . قائلا : " نعم ... مرت السنوات سريعة كالثوانى ".

يختلس النظر إلى المحلات، إلى الشوارع، مرة أخرى، ليودعها .... يصلان إلى المحطة ... يأتى القطار... لايوجد ازدحام بالقطارات المتجهة للقاهرة صيفا. يتجه إلى عربته، ليضع حقائبه، يفاجأ بزميله حامد مقبلا ناحية القطار، ومتجها ناحيته .. ينظر إلى المخبر، الذى استحلفه ألا يخبر أحدا، معاتبا ... يفهم المخبر معنى نظرة العتاب ... فيرد لينفى ظنون الضابط قائلا :

. لا يابك ... سيادتك حلفتنى، فلم أبح لأى أحد بموعد سفرك ... حضرة الضابط حامد قابلنى صدفة بالمحطة أمس أثناء حجزى للتذكرة ... سألنى عن موعد سفرك ... اعتذرت وقلت إن سيادتك حلفتنى ... وقد سها علىّ أن أذكر ذلك لسيادتك.

يتعانق الضابطان ... ويسأله ضابط المباحث، بعد أن عرف منه أنه مسافر للقاهرة أيضا :

. فى أى عربة حجزت مقعدك ؟

. نمرة خمسة.

. هى نفس العربة .... ورقم الكرسى ؟

. ٣٣

. يا للحظ ... أنت بجوارى إذن ... تذكرتى هى برقم ٣٤.

يودعهما المخبر، داعيا أن يصلا بسلامة الله .... ويتحرك القطار، فيجلس الصديقان.

إنها لحظات جميلة، أن يتقابل المرء مع صديق عزيز له، مصادفة، يؤنس وحدته فى سفره ... لقد زال التوتر الذى كان يشعر به ضابطنا فى بداية رحلة الاغتراب الجديدة ... وبدأ الحوار بينهما باسما طوال الطريق ... تخلله أحاديث بالقطع عن تنقلات الشرطة ... وكيف أن صديقه هذا لم ينقل فى هذه الحركة، لأنه نقل إلى إدارة متخصصة بالمحافظة قبل موعد الحركة .. ثم انتقل الحديث بينهما عن متاعب المهنة، كانا يصمتان للحظات .. ولكنه صمت يجتر فيه كل منهما ذكريات باسمة له مع الآخر..

تناولا قراءة الصحف، يعلقان على ماجاء بها، حول مأأعلنه الرئيس عبد الناصر، من أن الأرض لن تسترد إلا بالقوة.... وذلك لإزالة آثار عدوان " اسرائيل" بعد حرب عام ١٩٦٧.... يعود الحديث بينهما عن حياتهما الخاصة، وكيف أن الوقت سرق ضابطنا هذا فلم يرتبط بالزواج أو حتى الخطوبة.... إن الانشغال فى العمل ليلا ونهارا، طغى على أية فكرة للارتباط مبكرا.

يتذكران نادرة وقعت لزميل لهما بالكلية، فيضحكان بصوت مرتفع ... يستمران للحظات فى ذكريات الكلية ...

ثم يتذكر ضابط المباحث شيئا، فيحدث زميله، متعجبا قائلا :

. أمر عجيب.

. ما هو ؟

. هل تعلم أنك الذى اصطحبتنى لهذه المحافظة، لأول مرة، بعد مقابلتى لك مصادفة بالقاهرة ؟ .. هل تذكر هذا اللقاء؟

. أتذكر هذا جيدا ... وما هو الأمر العجيب فى ذلك ؟

. إنك تقابلنى مصادفة مرة أخرى، فى آخر يوم لى للعمل بهذه المحافظة ... يالها من أقدار.

. مرة أخرى ؟!

. ألا زلت لا تؤمن بأننا مسيرون ؟ .... إنها الأقدار يا صديقى ...

. هل هى عودة للفلسفة ؟

. ولم لا ؟ ... إنها الحقيقة.

ويسترسل ضابط المباحث معددا ما وقع له فى حياته ... مذكّرا صديقه كيف تم تعيينه بهذا المركز ... وكيف تم تعيينه بالمباحث ... ويذكره بكثير من الأمور التى وقعت، كان القدر فيها هو الموجّه، وهو المسيِّر ... مما دعاه لأن يجزم لصديقه بأن الإنسان مسيَّر فى كل شىء ... فيقاطعه زميله قائلا :

. إن جاز ذلك أحيانا ... فإنه ليس دائما ... إن مقابلتى اليوم لك، ليست قدرا، وليست مصادفة .. بل بفعلى أنا ... وباختيارى أنا.

. كيف ؟

ـ لقد شاهدت المخبر، الذى كان معك، أمس أثناء توديعى لأحد أقاربى بالمحطة، وأنا أعلم بأن هذا المخبر لصيق بك، سألته وهو ممسك بتذكرة سفر بشباك الحجز، عن موعد سفرك ... اعتذر بحجة أنك استحلفته بألا يخبر أحدا ... فطلبت من موظف الحجز أن يحجز لى تذكرة بجوار التذكرة التى حجزها المخبر ... وكان ذلك بسهولة، لعدم وجود أحد أمام شباك التذاكر ... أردت أن أودعك، وأن يكون ذلك مفاجأة لك مادمت

تخبىء عنا موعد سفرك، ولا تريدنا أن نودعك، وإنها لفرصة كى أزور أهلى بالقاهرة بعد ذلك ... فالمسألة ليست أقدارا أو مصادفة .. بل أنا الذى قررت.

يفاجأ الضابط بذلك، ويسود الصمت لحظة، لكنه يرد على قول صديقه قائلا :

ـ لا .. لا .. إنها الأقدار التى أرادت أن تجمعنا فى آخر يوم لى بالمحافظة ... كما هى التى جمعتنا معاً فى أول يوم لى بها ... فالأقدار هى التى جعلتك تذهب الى المحطة لتودع قريبك لكى تشاهد المخبر، وهو يحجز لى التذكرة ...

ويصل القطار إلى محطة القاهرة ... فيتوقف الجدل المحبب بينهما ... بينما يصرّ كل منهما على رأيه .... ويداعبان بعضهما البعض باتهام كل منهما للآخر ... بأن دماغه كالحجر.

تمت

فهرست

Contents